Anna Tibaijuka آنا تيبايوكا

عالم جديد

الهيئات المشرفة على المدن العملاقة

عما قريب سيعيش مليار من البشر في أحياء قذرة مزدحمة بالسكان، أحياء هي أشبه بالجحور - ويشهد الاتجاه العام على أن عدد هذه الأحياء سيتزايد بنحو متسارع. وكما هو بين من آخر تقارير الأمم المتحدة بشأن المستوطنات البشرية UN-Habitat-Report، تتطور في آسيا وأفريقيا، على وجه الخصوص، تجمعات سكنية ذات أبعاد عظيمة؛ ولا يشط المرء أبداً إذا ما أطلق على هذه التجمعات السكنية تسمية «المدن العملاقة». من هنا فإن إدارة هذه المراكز المكتظة بساكنيها هو التحدي الذي تواجهه البشرية في القرن الحادي والعشرين.

وستشهد البشرية في عام ٢٠٠٧ أحد أهم الأحداث في تاريخها الطويل. ففي هذا العام سيكون عدد السكان الحضر، لأول مرة في التاريخ، مساوياً لعدد السكان الريفيين. ويشكل هذا الحدث التاريخي علامة تشير ليس إلى التحولات التي طرأت على التركيبة السكانية ونمو حجم السكان فحسب، بل - وهذا هو الأمر الأكثر أهمية - إلى التحولات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، أيضاً، التي بدأت تنشر ظلالها على حياة بني البشر.

إن هذا التحول أمر جدير بالملاحظة فعلاً؛ فقبل ٢٠٠ عام كان الوجود الإنساني ذا طبيعة زراعية في المقام الأول؛ فأقل من ثلاثة بالمائة من مجمل السكان كانوا يقطنون في المدن. وحتى ذلك الحين كانت سرعة التحول صوب الحياة الحضرية بطيئة جداً.

وكان نمو المدن قد بدأ يتسارع في خمسينيات القرن العشرين؛ ففي تلك الأيام كان ثلث سكان العالم يقطنون في المدن. ومنذ ذلك الحين طرأ أسرع نمو عرفته البشرية؛ فهذا النمو العظيم قلل بنحو متزايد الفجوة القائمة بين حجم سكان المدن وعدد أبناء الريف. وهكذا صرنا في مطلع الألفية الجديدة نعيش حقبة حضرية تتميز بأن نصف سكان المعمورة قد أمسى يسكن في المدن.

وإذا كانت أثينا قبل ألفين من السنين أعظم مدينة في العالم قاطبة، إلا أن مجمل عدد سكانها كان يتراوح ما بين ٢١٥ ألف و٣٠٠ ألف نسمة فقط - أي أنه كان يشكل جزءاً متواضعاً جداً مقارنة بأولئك الثمانية عشر مليون مواطن الذين يقطنون في نيويورك في اليوم الراهن. وإذا كانت أول مدينة كبرى عرفها التاريخ، أعني روما القديمة، قد آوت، في القرن الميلادي الرابع، حوالي مليون نسمة، إلا أن عدد المدن، التي يسكنها مواطنون يماثل حجمهم حجم سكان روما القديمة أو يزيد عليه، قد ارتفع في عام ٢٠٠٠، على مستوى العالم أجمع، إلى ٣٠٠ مدينة. علماً بأن حياً سكنياً واحداً من أحياء مدينة مكسيكو، أعني حي Barrio Netzahualcoyotl، قد أمسى، في اليوم الراهن، يأوي ضعف عدد المواطنين الذين آوتهم روما القديمة في ذلك الزمن الغابر.

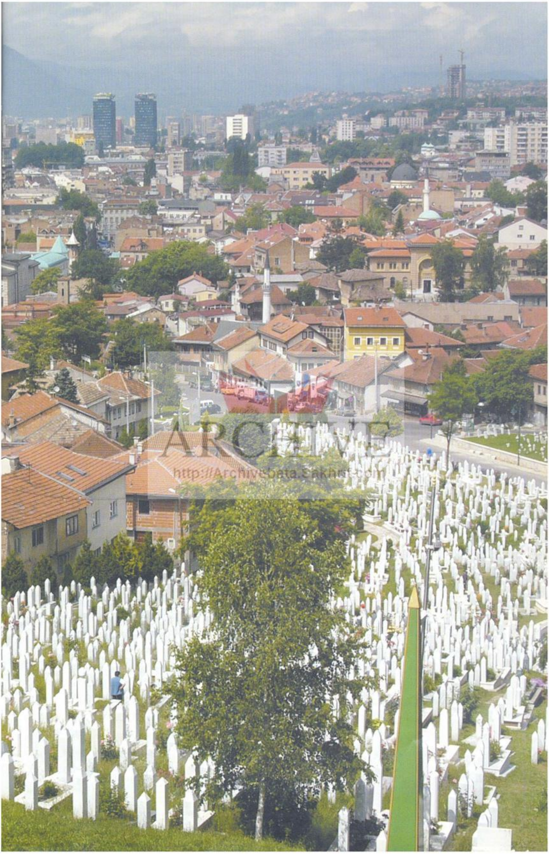
بيد أن من الصعوبة بمكان الاتفاق على تعريف عام للمدن الكبرى. فبرغم التقدم العظيم في الأساليب الرامية إلى إحصاء السكان بالتكنولوجية الجيو - فضائية وباستخدام الصور التي تبثها الأقمار الفضائية، باستمرار، وبكفاءة تزداد

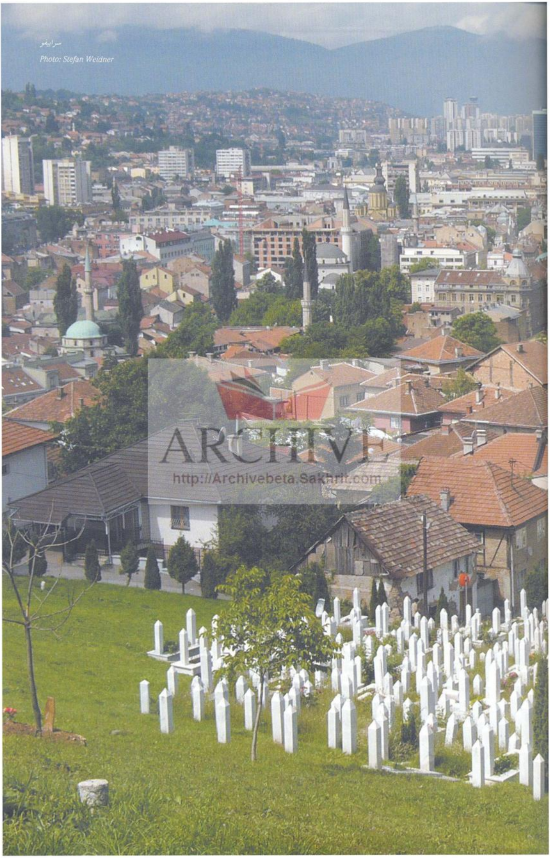
تحسناً من يوم لآخر، لا تزال التقديرات الخاصة بعدد السكان الذي يقطنون في مدن يزيد عدد سكانها على عشرة ملايين نسمة تختلف بنسبة تتراوح ما بين عشرين إلى ثلاثين بالمائة. وإذا كان هذا التباين يجعل من الصعوبة بمكان تقدير السرعة التي تنمو بها المدن العملاقة فعلاً، إلا أن البيانات الرسمية توضح بجلاء أن المدن الكبرى في العالم تأوي ـ خلافاً للاعتقاد العام ـ ٩ إلى ١١ بالمائة فقط من مجمل سكان المعمورة.

ولكن، لماذا تنطوي هذه الحقائق المبهرة على أهمية متميزة يا ترى؟ الجواب واضح لا يقبل الاختلاف: لأن هذه التطورات صارت بمثابة قنبلة اجتماعية ستنفجر بين ظهرانينا عما قريب. وتتأتى القوة التفجيرية الكامنة في هذه القنبلة من التفاوت في توزيع الدخول والثروات ومن التفرقة والتمييز بين بني البشر ومن التحيز للبعض على حساب البعض الآخر وأخيراً وليس آخراً من شعور قطاعات كبيرة من السكان بأنها أمست معزولة مهملة لا فرصة لها في المشاركة في قطف ثمار التقدم. أضف إلى هذا أن هذه المشاكل تزداد عمقاً وتتعاظم شراسة في أحياء الفقراء (التي تساهم بالجزء الأعظم من النمو السكاني الكبير الذي تتصف به المدن في الدول النامية). أضف إلى هذا أن أحياء الفقراء هذه تتسع مساحتها ويتزايد عددها بنحو متسارع على المستوى العالمي وعلى مستوى المناطق التي يسكنها الفقراء من سكان البلدان الغنية. فهناك، باديء ذي بدء، مشكلة عدم توافر هذه الأحياء السكنية على بيوت خالية بالعدد المطلوب والمستوى المناسب للمتطلبات الصحية؛ وهناك أيضاً النقص الكبير في مياه الشرب المعقمة. ولأن ثمن هذه المياه في تزايد مستمر، لذا أمسى الحصول عليها يشكل عبئاً يرهق كاهل الفقراء. وعلاوة على هذا وذاك، غالباً ما تُمْتَهَنُ الحقوقُ المدنية وحقوقُ الإنسان وحقُ الحصول على المأوى المناسب وحقُ ملْكية الأرض الزراعية ويُستَخف بها ـ لا بل تُحجب هذه الحقوق عن الفقراء بالكامل في الكثير من الحالات. وتزداد هذه المشاكل تعقيداً، من ناحية، من خلال انتشار الأمراض وعدم توافر الفقراء على أبسط سبل الرعاية الطبية ومن ناحية أخرى، من خلال تصاعد الجرائم في المناطق غير المربوطة بشبكة الطاقة الكهربائية والتي لا توجد في شوارعها أية إنارة في الليل، ناهيك عن توافر هذه المناطق على الطاقة الكهربائية الضرورية للطبخ أو للتدفئة. ويلمس المرء تصاعد الجرائم من خلال العصابات التي يشكلها الشباب الذين لا قدرة لذويهم على إرسالهم إلى المدارس بسبب فقرهم المدقع.

وفي جلسات المنتدى الحضري العالمي الثالث المنعقد عام ٢٠٠٦ في المدينة الكندية فانكوفر ـ بمناسبة مرور ثلاثين عاماً على إنشاء مؤتمر الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية UN-Habitat ـ كان المشاركون في أعمال المنتدى متفقين على أن التعامل مع التوسع الحضري المتسارع سيكون أعظم مشكلة ستواجهها البشرية في القرن الحادي والعشرين. وكان مؤتمر فانكوفر ٢٠٠٦ قد أبان بجلاء أن على الأمم المتحدة أن تحشد، بنحو لا مثيل له في التاريخ، كل طاقاتها للكفاح من أجل تحقق توسع حضري معقول ومدن متكاملة تليق بكرامة بني البشر. ويكتسب هذا النداء أهمية خاصة لا سيما أن مؤتمر فانكوفر قد كان على يقين من أن عدد السكان الحضر في الدول النامية سيرتفع في غضون الثلاثين عاماً القادمة إلى ضعف ما هو عليه في اليوم الراهن، أي أن عدد سكان المدن سيزداد بملياري نسمة في الثلاثين عاماً القادمة. وغني عن البيان أن هذه الزيادة العظيمة ستحتم ضرورة وضع الخطط وتأمين التمويل والشروع بالبنى التحتية المناسبة لإنشاء مدن جديدة قادرة على استيعاب مليون مواطن مع كل أسبوع يمر.

ولا تنمو المدن العملاقة بوتيرة واحدة. فالملاحظ هو أن معدلات نمو هذه المدن قد أخذت تتباطأ بنحو لا رجعة منه؛ فالمعدلات السنوية تقل عن ٠,٥ بالمائة. فإذا كانت نيويورك ولوس أنجلوس قد حققت قبل عشرة أعوام معدلات نمو تبلغ واحد بالمائة في كل عام، إلا أن التنبؤات تشير إلى أن سكان كلتا المدينتين العملاقتين سينخفض عددهم إلى النصف تقريباً حتى عام ٢٠١٥. وبالنسبة لمدن من قبيل لندن وطوكيو وما سواهما من مدن عملاقة في الدول الصناعية، تشير التنبؤات إلى أن هذه المدن ستتوقف، عملياً، عن النمو في العشر سنوات القادمة. على صعيد آخر، ينمو السكان في المدن العملاقة المتعارف عليها في الدول النامية بمعدل يزيد على ٢ بالمائة؛ ولا يجوز لهذه الحقيقة أن تحجب عن أنظارنا أن معدل النمو هذا يختلف من إقليم لآخر. فبالنسبة لأمريكا اللاتينية سيكون معدل النمو السنوي، في المتوسط، سالباً بقدر تعلق الأمر بالمدن الكبيرة (-٥,٣ بالمائة)؛ فمدن من قبيل ساو باولو وريو دي جانيرو ومكسيكوستي لن تنمو بالسرعة التي حققتها سابقا؛ فمعدلات نموها ستبلغ ٠,٩٦ بالمائة و٠,٩٥ بالمائة و٠,٨٣ بالمائة على التوالي. إن المدن في آسيا وأفريقيا هي المناطق السكنية التي تتصف بالنمو السكاني الكبير؛ وينطبق هذا الأمر على المدن العملاقة في آسيا على وجه الخصوص، فهذه المدن ما برحت تحقق معدلات نمو عظيمة تبلغ ٦,٩ بالمائة سنوياً. أضف إلى هذا أن بعض المدن ـ التي لا تندرج في اليوم الراهن في عداد المدن العملاقة، أعني بكين وغوانغسوهو واسطنبول ومانيلا على سبيل المثال لا الحصر ـ ستتحول، هي الأخرى أيضاً، إلى مدن عملاقة إن عاجلاً أو آجلاً.





سراييفو

Photo: Stefan Weidner

إن نمو الحياة الحضرية يخلق، في آسيا وأمريكا اللاتينية وأفريقيا تجمعات سكنية أعظم، تجمعات سكنية لا مندوحة لنا من أن نسميها «مدناً عملاقة» أو «مدناً كبرى». وبخطى حثيثة يلتهم تحول ما يقرب من عشرين مليون مواطن صوب الحياة الحضرية، صوب الحياة في المدن العملاقة، المناطق الزراعية والمدن الصغيرة والمتوسطة المحيطة بالمدينة العملاقة. وبفعل التطور الاقتصادي والنمو السكاني تتحول هذه المدن العملاقة إلى وحدات إدارية، تشتمل كل واحدة منها، على العديد من المراكز. هذا ولم يشهد التاريخ، قط، مدناً بالأبعاد التي تتميز بها المدن العملاقة المتعارف عليها في اليوم الراهن. فهناك مدن كثيرة تأوي سكاناً يزيد عددهم على عدد سكان بعض الدول. فعلى سبيل المثال، فإن بومباي الكبرى ـ وهي مدينة ستندرج عما قريب في عداد المدن العملاقة ـ تأوي الآن أناساً يزيد عددهم على عدد سكان السويد والنرويج سوية.

التحضر: ظاهرة قوة لا يمكن صدها

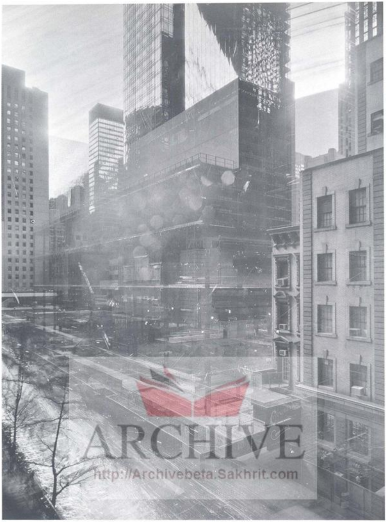
في عام ٢٠٠٧ ارتفع عدد السكان القاطنين في أحياء الفقراء إلى مليار نسمة. ومعنى هذا، هو أن ثلث سكان المدن قد أمسوا يعيشون بلا سكن مناسب ومن غير أن تكون لهم فرصة للحصول على المستلزمات العامة للحياة. ولحد الآن لا يزال من الصعوبة بمكان التعرف على الطريقة التي تؤثر بها هذه الظاهرة على السياسة والنشاطات الحكومية، أعني تأثيرها على أهداف الألفية الجديدة عامة والهدف السابع (ضمان سلامة البيئة) والهدف العاشر (توفير مياه الشرب المعقمة والمرافق الصحية المناسبة) والهدف الحادي عشر (العمل على تطوير مستلزمات العيش في أحياء الفقراء) على وجه الخصوص. والأمر الذي لا مندوحة للمرء من الإقرار به هو أن نمو المدن ـ سواء من خلال تصاعد هجرة السكان الريفيين إليها أو من خلال نمو سكانها الطبيعي ـ أمر لا قدرة للمرء على صده. فاتساع عملية التحضر يجسد أحد أعظم التحولات في عالم اليوم، يجسد تحولاً لا رجعة منه أبداً. وبحسب ما تقوله بعض التقديرات فإن ٩٣ بالمائة من النمو الذي سيطرأ على سكان المدن مستقبلاً سيكون من حصة المدن الآسيوية والأفريقية، ونسبة ضئيلة منه ستتحقق في أمريكا اللاتينية وحوض بحر الكاريبي.

إن المدن العملاقة هي أكثر من مدن بلغت حداً كبيراً. فالبعد الذي تتصف به المدن العملاقة يخلق ديناميكيات جديدة، ويؤدي إلى علاقات شمولية لا عهد لنا بها في سابق الزمن. على صعيد آخر، يفرز هذا البعد تفاعلات جديدة بين عمليات التحول السكانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والبيئية. فالمدن العملاقة تشكل مراكز إقليمية وعالمية للنمو الاقتصادي. إنها بمثابة البوتقة التي ينصهر فيها أناس يأتون من شتى بقاع المعمورة.

ففي الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال، يزيد حجم الدخول الذي تحققه بضعة من المدن على الدخول القومية التي تجنيها بعض الدول. فلو نظر المرء إلى كبرى المدن الأمريكية الخمسة، أعني نيويورك ولوس أنجلوس وشيكاغو وبوسطن وفيلادلفيا، على أنها تشكل دولة واحدة، لكانت هذه المدن رابع أكبر اقتصاديات العالم قاطبة. ويلمس المرء اتجاهاً من هذا القبيل في الدول النامية أيضاً: ففي حين تأوي كل من ساو باولو، كبرى المدن البرازيلية، وبانكوك، العاصمة التايلندية، ما يقرب من عشرة بالمائة من مجموع سكان البلدين، إلا أن كل واحدة من هاتين المدينتين تنتج ما يزيد على ٤٠ بالمائة من قيمة الناتج القومي الإجمالي المتحقق في البلدين المعنيين. وخلافاً لهذه الحالات، وفي الدول الأفريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى على وجه الخصوص، فإن نمو المدن لا يرافقه نمو اقتصادي مناسب ولا عملية تصنيع قادرة على خلق شيء من التطور الاقتصادي. فما يتحقق في هذه البلدان هو عكس ما هو مطلوب؛ فبعض المدن الأفريقية الكبيرة يزداد عدد القاطنين فيها باستمرار بالرغم من ضعف معدلات نمو الناتج القومي وتدني مستوى الأداء الاقتصادي؛ فبمعدل نمو بلغ ٤,٥٨ بالمائة لا يزداد سكان مدن هذا الإقليم بأعلى معدلات نمو يعرفها العالم في اليوم الراهن فحسب، بل وتنمو، أيضاً، الأحياء الفقيرة عدداً ومساحة وسكاناً. إن ٧٥ بالمائة من سكان المدن الأفريقية يقطنون في الأحياء الفقيرة. وبناءً على التفاوت العظيم في توزيع الموارد الاقتصادية وعلى خلفية السياسة غير المهتمة بخفض الفقر، أدت هذه الظاهرة، أعني ظاهرة نمو سكان المدن، إلى ارتفاع نسبة الفقر في المدن. وغني عن البيان أن ارتفاع هذه النسبة يعيق قدرة المدن على التطور ويخفض أداءها الاقتصادي بنحو فعال. بهذا المعنى، ففي الكثير من مناطق هذا الإقليم قوضت المعدلات العالية لنمو السكان الحضر والنسبة الكبيرة لقوى العمل غير المتعلمة وانتشار مرض نقص المناعة (الايدز)، بالكامل، الجهود التي تبذلها المدن لخفض نسبة الفقر.

وحتى في البلدان الآسيوية الناجحة اقتصادياً والمصنعة نفسها بنحو متسارع، أعني بلدان من قبيل الصين والهند، يظل الفقر في المدن هو السكين الذي يفت في العضد باستمرار. فهنا أيضاً كان عدد الفقراء يتراجع بنسب تقل كثيراً عن النسب التي ينمو بها الناتج القومي الإجمالي.

وهكذا، وفي الكثير من البلدان النامية، أمسى الفقر أحد الخصائص المفزعة والعامة للحياة في المدن. وغالباً ما يعني ارتفاع عدد الفقراء في المدن أن شروط الحياة قد ازدادت



Michael Wesely: 9. 8.2001 – 7.6.2004
The Museum of Modern Art, New York, 2001 – 2004
175 x 125 cm, framed c-print, Plexiglas
Courtesy of the artist and Fahnemann Projects, Berlin

وخامة؛ ويلمس المرء هذه الزيادة من خلال تنامي أحياء الفقراء بمعدلات كبيرة. وكثيراً ما يعتقد البعض خطأً أن الأحياء الفقيرة ظاهرة تختص بالمدن العملاقة في المقام الأول، وأنها ظاهرة نادرة في المدن المتوسطة والصغيرة من حيث عدد السكان. بيد أن الحقيقة البينة تشهد على أن استيعاب الجزء الأعظم من نمو سكان المدن سيتم، على المستوى العالمي، من خلال المدن التي تأوي سكاناً يقل عددهم عن خمسمائة ألف نسمة والمدن متوسطة الحجم التي يقطن فيها سكان يتراوح عددهم بين مليون إلى خمسة ملايين نسمة، وليس من خلال المدن العملاقة؛ من هنا، يتوقع الخبراء المعنيون بالأمر أن ظاهرة الأحياء الفقيرة ستنتشر في المدن الصغيرة والمتوسطة أيضاً. بيد أن الأمر الذي لا خلاف عليه هو أن المدن العملاقة ستظل عنواناً يشهد على بؤس الحياة في أحياء الفقراء، فهنا يتبين للعيان بنحو ساطع وخامة الحياة في مساكن مكتظة بالسكان والمشاكل العظيمة التي تنشأ عن الكثافة السكانية العالية وتلوث البيئة وتردي شروط المرافق الصحية. ففي المدن العملاقة، على وجه الخصوص، يزيد الفقر المدقع والتفاوت الاجتماعي الشديد وتردي الظروف البيئية من وخامة الظروف التي يعاني المواطنون من وطأتها. فالمدن المتصفة بالتمييز الاجتماعي والفرز العنصري وتفاوت متزايد بين الفقر والغنى تكون أكثر عرضة للجرائم وتردي الأوضاع الأمنية والصراعات بين المجموعات المختلفة من المواطنين.

وكما بينت دراسات مؤتمر الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية فإن السكان الذين يقطنون في الأحياء الفقيرة المتعارف عليها في المدن العملاقة أكثر عرضة لتردي

الأوضاع الصحية وارتفاع وفيات الأطفال وأمراض القصبات الهوائية من سكان الأحياء الفقيرة في المدن الصغيرة. من هنا، فإذا لم نعر اهتماماً أكبر لمعالجة الأمور، وإذا ظلت المدن العملاقة بلا إدارة حكيمة، فإن هذه المدن ستتحول، عما قريب، إلى تجمعات سكنية عظيمة تأوي عمالاً بلا فرص عمل دائمة، تأوي عمالاً يعانون من سوء التغذية ووطأة الأمراض ورداءة التعليم العام والمهني. ولا غرو من أن مدناً من هذا القبيل ستكون أرضاً خصبة لانتشار الجريمة وتعاظم الرزايا والخطوب. ففي هذه المناطق السكنية العملاقة سيتعين على السكان والمؤسسات الحكومية والاقتصاد التعامل، يومياً، مع بنى تحتية متدنية الأداء وتلوث بيئي عظيم وتلال من القمامة.

اللامركزية: صيغة جديدة للإدارة الرشيدة

في الواقع ليست لدينا خيارات كثيرة لمعالجة المعضلات التي تحدثنا عنها آنفاً. بيد أن الأمر الذي لا شك فيه هو أن تخطيط المدن في إطار وطني موحد هو أحد هذه الخيارات الفعالة. فإذا ما تحققت الخطط التنموية الناجحة، فإن المواطنين سيشعرون بإغراء كبير يدفعهم للسكنى في المدن الصغيرة والمتوسطة وليس في المدن العملاقة فقط. علاوة على هذا، لا مندوحة للتخطيط الجغرافي الفعلي، المقر على مستوى المدن، من أن يسير يداً بيد مع قرارات إستراتيجية مكملة ومصادر مالية كافية وإرادة سياسية صلبة، إذا ما أراد المرء فعلاً تحقيق التطور المنشود على المستوى المحلي.

ولعل من نافلة القول الإشارة هاهنا إلى أن بضعة من مدن الدول النامية، فقط، تتوافر في يومنا الراهن على بنى تحتية تعمل بالنحو المطلوب. فالإدارات المحلية والتخطيط على مستوى المدينة نادراً ما تكون جزءاً من خطة كلية متكاملة. وليس ثمة شك في أن خلق شرط هذه الحلقة الوسطى من حلقات الإدارات المحلية أمر معقد وذلك لأن المدن الكبرى كثيراً ما تتسع حدودها لتشمل المديريات المحيطة بها. فبعض المدن العملاقة، المشابهة لساو باولو، يزيد عدد البلديات التابعة لها على الثلاثين بلدية. وتشير التقديرات إلى أن عدد البلديات التابعة إلى أغلب المدن الكبيرة في الدول النامية يبلغ عادة حوالي عشرين بلدية. أضف إلى هذا أن التمثيل الرسمي على مستوى المدن الكبرى غالباً ما يُنظر إليه على أنه تنافس سياسي بين المستويات ذات الشأن في الجهاز السياسي المسيطر على إدارة المدينة المعنية. وينطبق هذا الأمر حتى على تقرير المسائل العملية البحتة. وهذه الحقيقة هي ظاهرة بيروقراطية تقض المضاجع بلا ريب؛ من هنا فإن السياسيين من أبناء البلدان المعنية لا مندوحة لهم من أن يجدوا الحل المناسب لهذه الظاهرة، فحلها يساهم بنحو كبير في تحسين الظروف المحلية.

وتحتم التوجهات الرامية إلى إسباغ اللامركزية على الهياكل الإدارية تقديم الدعم المالي والعملي إلى الإدارات المحلية، فبلا هذا الدعم لن تكون هذه الإدارات قادرة على التغلب على مهامها الكثيرة والمختلفة. ويتطلب حل هذه المعضلة طرازاً جديداً لتسيير دفة الحكم، طرازاً تتكاتف فيه الحكومات المركزية مع الإدارات المحلية بغية المواءمة بين ما يتخذون من خطوات وإجراءات. وكان مؤتمر الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية قد حلل، مؤخراً، ٢٣ حالة من حالات تخطيط المدن، فاكتشف أن الأداء السياسي الجديد يؤدي، إذا ما صاحبته، في الأمد الطويل، الجهود السياسية المناسبة، إلى خفض معدلات الفقر: فالإصلاح الزراعي وتهيئة المساكن للفقراء خطوات تحسن من ظروف الحياة التي يعاني منها سكان الأحياء الفقيرة وتسهل عليهم الحصول على المستلزمات الضرورية للعيش؛ على صعيد آخر، فإن استثمار الأموال في مجال تحسين ظروف الحياة في الأحياء الفقيرة يعيق تزايد هذه الأحياء مستقبلاً؛ ولا يجوز هاهنا التقليل من أهمية السياسة الهادفة إلى جعل النمو الاقتصادي وسيلة لتكافؤ الفرص ولخفض التفاوت بين الفئات الاجتماعية المختلفة.

إن المراكز السكنية الآخذة بهذه السياسة لا تستجيب، بتوجهاتها هذه، إلى المستلزمات الاجتماعية فقط، بل هي تقدم خدمة جليلة للتنمية الاقتصادية أيضاً. ومنذ نهاية تسعينات القرن العشرين أخذت بعض الدول المانحة تعيد النظر في المساعدات التنموية الدولية. فهذه الدول صارت ترى أن خلق الشروط المناسبة للتوجيه الحكومي أهم بكثير من تمويل مشاريع تجريبية صغيرة؛ أضف إلى هذا أن الدول المانحة قد تحولت إلى تقديم مساعدات مالية وعملية طويلة المدى وأنها اتخذت التدابير الضرورية لتنسيق جهودها.

إن المبادرات المتخذة على المستوى المحلي ومستوى المدن ستكون أكثر فعالية في القضاء على الأزمات الدائمة التي تمر بها هذه المدن، إن تركزت هذه المبادرات على التجاوب مع المنهج الجديد للمساعدات وإن كيفت نفسها مع التوجهات الجديدة في السياسة الوطنية. في عام ٢٠٠٧ لا مندوحة لنا من أن نحقق تحولاً تاريخياً حقاً وحقيقاً، أعني لا مندوحة لنا من أن نخلق الإمكانيات الضرورية لبناء مدن متكاملة، لأن نشيد جسوراً وليس قلاعاً، لأن نحول مدننا إلى مراكز لحياة أفضل - حياة أفضل لنا ولأطفالنا ولأحفادنا.

ترجمة: عدنان عباس علي

آنا تيبايوكا: مديرة تنفيذية لبرنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية/ نيروبي.

المصدر: Internationale Politik, Nr. 11

إلزا هيلبريشت Ilse Helbrecht

ثورة التمدن

المدن هي مولدات التغيير

لم تعد المدينة مكانا مطوقا بالأسوار، يدع المهاجرين إليه هائمين خارج أبوابه، فقد صارت المدينة تضم أرضا وأناسا وعالما. وبقدر ما تنفتح المدينة وتصبح عالما، بقدر ما تثبت أنها وسيلة اقتصادية وسياسية وثقافية للبشرية لتبقى على قيد الحياة، ولا فرق في ذلك بين لوس أنجلوس والقاهرة وجوهانيسبرغ. لقد أصبحت المدينة مثل «دليل استخدام» عالمي لتنظيم التعايش البشري. وخلافا للثورة الفرنسية، ولوثيقة إعلان الاستقلال الأمريكي، فإن الثورة التمدنية عملية طويلة الأمد، وتتطلب بلورتها.

"ولا تسري في هذه المدن أي روح، وإنما هي عبارة عن أرض متحجرة"، بهذه الكلمات وصف أوسفالد شبينغلر Oswald Spengler طبيعة المدن العظمى في بداية القرن العشرين. وفي مشهد النهاية الذي وضعه لـ «أفول الغرب» تلعب المدن دورا مفجعا بشكل متميز. إذ يرى أنها تمثل الأماكن التي تتجمد فيها الحياة، لأن البشر فيها يصبحون عقاما في أجسادهم، وأرواحهم، وأنفسهم. إن تقدم المدن هو بالنسبة لفيلسوف التاريخ هذا بداية للأفول؛ ليس لأفول الغرب فحسب، وإنما لأفول كل حضارة.

يسوق شبينغلر سببين للبرهنة على أن انتشار المدن ونموها يمهدان الطريق في صورته عن العالم إلى الأفول؛ فأولا يعتقد شبينغلر أن المجتمعات تفقد قواها الفكرية والثقافية من خلال الاستيطان في المدن، ويعتبر المدن منشآت متجمدة وساكنة، لا تنبض بالحياة الاجتماعية، ولا يحدث فيها أي تجدد ثقافي، فضلا عن أنها لا يتدفق منها أي عظمة فكرية، بل إن ما يحدث فيها هو تجمد الإنسانية. ويقول بأن نشوء أي مدينة عظمى هو «رمز لموت» أي حضارة. وثانيا يذهب هذا العالم الذي أقام في ميونيخ وعمل مدرسا جامعيا، يذهب إلى أنه بنشوء المدن تتحول المدنيات حتما إلى شبه إمبريالية، إذ إن المدن العظمى ستكون غرضا ووسيلة لتصرف القوى العظمى؛ فكما هو الحال في عهد الرومان مثلا، ينشأ مصطلح إقليم أصلا، حيث تفوز إمبراطورية ما بالسيطرة على مناطق أخرى (كمنطقة البحر المتوسط) وتعلنها ـ انطلاقا من عاصمتها - إقليما تابعا لها.

إن وجود أي مدينة عظمى هو وحده الذي يؤدي بشكل إمبريالي إلى نشوء الإقليم. إذ إن أي مدينة عالية التطور تنشأ تلقائيا تقريبا مع استعمار واضطهاد الثقافات الإقليمية الضعيفة اقتصاديا وسياسيا وعسكريا. ولو كان أوسفالد شبينغلر محقا ولو قليلا فقط في نظرياته المتعلقة بفلسفة المدن والتاريخ، لأصبح مصير البشرية حاليا سيئا بدرجة لا تُقدر. إذ سنتواجد كأموات ينتظرون من يبعث الحياة فيهم، ككائنات شبه منتنة تعافها النفس، لا تظهر نهارا إلا لأنها انشقت عنها قبورها ليلا وأظهرتها.

وطبقا لنظرية شبينغلر فإن هذا المصير سيكون مصيرنا، ليس فقط لأنه تنبأ بأن موعد أفول الغرب هو عام ألفين فحسب، وإنما سنصبح متخلفين بوجه خاص، لأننا، نحن سكان كل القارات، لا نأبه منذ أكثر من نصف قرن بتحذير شبينغلر من أن الأفول سيكون من خلال انتشار المدن.

النمو السريع في نظام المدن

إننا في الحقيقة نفعل ما يتجاوز تجاهل هذا التحذير، إذ نعمل بكل قوة على انتشار نظام المدن المتنامي بسرعة. فهل سيكون ذلك سبب هلاكنا؟. لا أعتقد ذلك، بل الأرجح أن تأسيس المدن يبدو أنه وسيلة اقتصادية وسياسية وثقافية للبشرية لمواصلة الحياة. إن إنشاء المدن يبدو أنه أصبح يشبه «دليل استخدام» عالميا لتنظيم التعايش البشري. ومع ذلك فإن فهم وتفسير وتطبيق «دليل الاستخدام» هذا يختلف كثيرا من أمة إلى أخرى، ومن قارة إلى أخرى. وحوالي عام ١٩٠٠ كانت لندن أكبر مدينة في العالم ـ بسكانها الذين بلغ عددهم خمسة ملايين تقريبا، بينما كان يعيش أصلا في المدن على مستوى العالم ١٥٠ مليون نسمة فقط. ومنذ ذلك الحين تضاعف عدد المدن عشرين مرة، ويعيش في المدن اليوم ٣,٢ مليار نسمة، وإذا كان قد صعُب في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تصور أن يصل سكان المدن أصلا إلى أكثر من عشرة ملايين نسمة، فإن مدى كبر تجمع البشر في المدن اليوم قد اقترب من عدد أفراد كل الشعوب في السابق. إذ في أكبر مدن العالم حاليا، طوكيو، يعيش ما يزيد عن ستة وعشرين مليون نسمة. وحوالي عام ١٩٠٠ كانت المدينة تُوصف بأنها



الخرطوم

Photo: Almogran

From the exhibition: 3rd International Architecture Biennale Rotterdam

كبيرة ومتميزة، عندما كان عدد سكانها يبلغ أكثر من مليون نسمة، وفي عام ١٩٧٥ وصل عدد المدن في العالم إلى مائة وخمس وتسعين مدينة يبلغ عدد سكان كل منها الملايين. وفي الوقت الحاضر يصل عدد المدن في دول العالم الأقل نموا فقط إلى مائتين واثنتين وتسعين مدينة، يزيد عدد سكان كل منها عن مليون نسمة.

إن سكان العالم يركزون وبسرعة على السكنى في المدن، ومن الأرجح أن عدد المدن في العالم سيصل في عام ٢٠١٥ إلى خمسمائة وأربع وستين مدينة، يسكن كل منها الملايين.

ساحات الاتصال بين الثقافات

من الواضح أن شبينغلر أخطأ في تقدير العلاقة بين البشر والمدينة؛ بين المدينة والحضارة؛ بين تلاقي الحضارات والعولمة. لقد تجاهل أن المدن ليست علامة على الطور الأخير لأي مدنية، وإنما هي تشكل الأساس الجوهري لتجديدها. إنه لم يدرك أن المدن لا تشكل وحدة من المراكز لأي حضارة متسيدة للسيطرة على الحضارات الأخرى، وإنما هي مليئة بعدد كبير من طرق الحياة والثقافات المختلفة. لم يدرك أنه لابد من المدن حتى يثمر تلاقي طرق الحياة والهويات هذه وتدور بينها الحوارات. إن المدن تقوم بوظائف هامة باعتبارها ساحات اتصال بين الثقافات. وارتقاء المدن لا يشير إلى الأفول، وإنما يبين أن عالمنا أصبح في الأثناء كونا متمدنا ـ أي أن العالم أصبح مدينة، والمدينة أصبحت عالما، وبكل بساطة، بكونها تحولت إلى شكل سائد للاستيطان وللحياة على ظهر الأرض.

لقد تغيرت بشكل تام على مدى المئة عام الأخيرة أبعاد المدن وطبيعتها، وكذلك التصورات عن العاصمة، والمدنية العظمى، لأن الوقائع العمرانية قد تغيرت كلية. ولإدراك التحول في أشكال المدن ونموها الذي تجاوز الحد، ابتكرت الأمم المتحدة في سبعينات القرن العشرين مصطلحا جديدا «Megacities»، أي «المدن الضخمة»، ويراد بذلك المدن التي بلغ عدد سكان كل منها أكثر من عشرة ملايين نسمة، بيد أنه في الأثناء أعادت الأمم المتحدة النظر في تعريفها وتفسيرها لـ «Megacities» ؛ ففي ملاءمة لنمو المدن بشكل بدا في تسعينات القرن العشرين أنه لا يمكن وقفه، رفعت الأمم المتحدة معدل أقل عدد لسكان المدينة الضخمة إلى عشرة ملايين نسمة. ويصل عدد هذه المدن الضخمة في العالم حاليا إلى تسع عشرة مدينة، ومن الراجح أن يبلغ عددها إلى عام ٢٠١٥ أكثر من ضعف هذا العدد ليصل إلى أربع وأربعين مدينة، بل إن بعض الباحثين في شؤون المدن يتحدثون عن «Mega Urbanisierung»، أي «التحضر الضخم، ويصفون بذلك أبعاد نمو المدن في القرن الحادي والعشرين. وهكذا فنحن نعيش في عهود التحضر؛ في عالم متحضر تماما. إذ إن المدن لم تعد أماكن متميزة للإنتاج الثقافي، أو رائدة في النمو الاقتصادي والتكنولوجي أو مراكز سلطة سياسية فحسب، وإنما أصبحت النموذج المعتاد للسكنى. واعتبارا من عام ٢٠٠٧ يعيش ولأول مرة في التاريخ نصف البشر في المدن. بيد أن العالم المتمدن في القرن الحادي والعشرين ينقسم إلى نصفين محددين تحديدا جديدا، هما إلى حد ما نفس القسمين اللذين كان عليهما العالم في الفترة الاستعمارية، فالفرق بين شمال وجنوب الكرة الأرضية هو اليوم أهم من المقارنة قديما بين الشرق والغرب. لقد أصبحت هناك سياسة تحضر جديدة للطبيعة، تعم الكرة الأرضية، وتظهر بشكل هائل في اختلاف أنواع المدن وديناميكية نموها إقليما بدرجة كبيرة.

وبينما كانت العواصم القديمة في القرنين التاسع عشر والعشرين تقع في النصف الشمالي للكرة الأرضية (نيويورك، ولندن، وباريس)، فإن القرن الحادي والعشرين سيشهد نشوء أكبر المدن الضخمة في النصف الجنوبي للكرة الأرضية. كما أن أكبر عشرة مدن ضخمة «Megacities» في العالم لن توجد في الولايات المتحدة الأمريكية، ولا في أوروبا، وهذا ما يلاحظ حاليا بالفعل. ولم تعد من بين أكبر عشرين مدينة في العالم باريس (وتأتي في المركز الحادي والعشرين)، ولا موسكو (وترتيبها الثالث والعشرون)، ولا لندن (وتأتي في المركز الخامس والعشرين). وتأتي برلين حاليا في المركز الخامس والسبعين، وستزداد بالتأكيد تراجعا في الترتيب. كما أن تسعين في المائة من الزيادة السكانية في العالم في الخمس والعشرين سنة القادمة ستحدث في مدن الدول النامية، الأمر الذي يعني أن عدد سكان المدن هناك سيتضاعف في نفس الفترة. ويرتبط بذلك موجات هجرة ضخمة عبر الحدود الإقليمية والدولية، وكذلك تحولات ومصائر وضائقات على مستوى الأفراد والمجتمعات. إن أكبر نمو للمدينة سيحدث بالدرجة الأولى في المنطقة الواقعة جنوب الصحراء بالقارة الإفريقية، وفي آسيا (ولكن ليس في اليابان). وفي أمريكا الجنوبية ودول الكاريبي يعيش حوالي خمسة وسبعين في المائة من السكان حاليا في المدن؛ فما هي أسباب هذا النمو القوي في المدن؟ وعلام تعتمد قوة الجذب في هذه الأكوان التحضرية على مستوى العالم؟ وهل يمكن المقارنة أصلا بين ما يحدث في شمال وجنوب الكرة الأرضية، وكذلك بين ما يحدث في شرقها وغربها؟

إن أنواع التحضر مختلفة عالميا لدرجة تجعل من الصعب القول بأن هذا التحضر عام. والوقوف بشكل تقريبي على جانب من الماهية المتميزة، والحياة الخاصة، والطبيعة الخاصة لمعظم المدن يستلزم توفر منظور «من الداخل»؛ «من القاع»، ونظرة على الحياة اليومية في المدينة. إذ إن ما يتاح للزائر القادم من الخارج، والذي يقيم لبضعة أيام، أو لبضعة أسابيع في بعض مدن العالم، هو عبارة عن نماذج، ومناظر مضطربة ومحيرة.

وهكذا تذكر بأمريكا الشمالية بعض المدن في المناطق النامية اقتصاديا في آسيا، بما تتميز به من هندسة بناء ناطحات السحاب، وبالواجهات اللامعة من الصلب والزجاج. لقد انتشر في جنوب شرق آسيا الشعور بالسعادة في صعود المرتفعات المعمارية دائمة التجدد، في ارتباط مع المغامرة بالوصول بالمدينة إلى السماء، وبناء المنازل العالية لتوصل إلى اختراقها للسحاب. وتتوفر في مانيلا بالفلبين، وفي سول بكوريا الجنوبية، وفي بانكوك بتايلاندا مشاهد حضرية قام بإخراجها نجوم المسرح المعماري الدولي.

وفوق ذلك يتوفر التنوع الثقافي، ومعالم العلاقات بين الثقافات داخل العواصم بدرجة لم تعد معها آسيا موجودة في القارة الآسيوية فقط، ولا أمريكا الشمالية في أمريكا الشمالية فقط. إن الجغرافيا الجديدة للعمران الحضري تقود أولا إلى أن العالم أصبح مدينة، وثانيا إلى أن العكس صحيح أيضا. لقد صارت المدينة عالما بكونها أصبحت تجمع وبشكل متزايد بين طرق الحياة الإقليمية والقومية والوطنية والقارية المختلفة. وباختصار: ستصبح المدن مدنا عالمية، ولم تعد العولمة توجد خارج المدن، وإنما داخلها وبشكل متزايد.

إن هذا التحول إلى العالمية هو تحول مزدوج، وله أساس مزدوج. إذ ليس من توابع العولمة الإثراء الحضري من خلال التواصل والتلاقي بين الثقافات المختلفة، وإنما تعني عولمة المدن أيضا أنه يكثر تشابه المدن إلى حد ما. وهذا لا ينطبق على الأماكن التي توجد في كل العالم، مثل المطارات، وأراضي المعارض، والمراكز التجارية فحسب، وإنما ينطبق أيضا وللأسف على رائدات التحضر (مثل أكبر المدن سكانا حاليا؛ طوكيو). إن انتصارات أي هندسة معمارية رائدة من الدرجة العالمية يمكن أن تعني أيضا فقدان الهوية، والانفرادية، والطابع المحلي. إذ بينما يقوم نورمان فوستر وزملاؤه بتشييد رؤياهم الرائعة كثيرا في لندن، وهونغ غونج، وطوكيو، وفي كل مكان، يقلدهم المعماريون العاديون بمعايير أقل. لقد كان فقدان الأصالة المعمارية مشكلة الهندسة المعمارية الحديثة في القرن العشرين.

العولمة والتحضر

وبنفس القدر الذي تساهم به العولمة في إضعاف الحكومات الوطنية، فإنها تجعل العواصم الضخمة الجديدة أماكن تجمع للمؤسسات الاقتصادية، وللسكان، والثقافة، والسلطة السياسية. إن هناك تلازما بين التقدم في العولمة ونظيره في التحضر، بحيث يصاحب التمركز العولمة. لقد صيغ مصطلح «Glokalisierung/glocalisation» في بداية تسعينيات القرن العشرين في عالم الاقتصاد المعتمد على اللغة الإنجليزية، للتعبير عن الاقتران المباشر في الحركة بين الاتصالات العالمية والتمركز المكاني. إذ تصبح المدينة ملتقى لتدفقات البضائع، والأموال، والاتصالات؛ وبصفتها نقطة التلاقي في شبكات الاتصال أصبحت المدينة أيضا موضوعا لدراسات الباحث في شؤون المدن والمجتمعات؛ الأمريكي - من كاليفورنيا - مانويل كاستلس Manuel Castells، الذي يرى أن المدينة تشكل في أزمنة عصر المعلومات حاضرة معلومات دولية في شبكة التيارات Spaces Offlows كما يتضح بشكل أكبر أن المدن أصبحت تمثل محاور للنمو، بيد أن كل محور منها لا يضاهي الآخر. وبسبب الازدواجية في قضايا

العولمة، يقل بكثرة التشابه بين الهياكل الدولية للمدن، إذ رغم أن درجة التحضر في أمريكا الجنوبية وفي دول الكاريبي عالية كما في الولايات المتحدة الأمريكية مثلا، فلم يحاول أحد بشكل جاد المقارنة بين لوس أنجلوس ومكسيكوسيتي، أو المقارنة بين شيكاغو ومدينة برازيليا. ولهذا فإن الكتب المدرسية الجيدة لمادة الجغرافيا كانت تتضمن دائما نماذج ثقافية خاصة لوصف خصائص المدينة في أمريكا الجنوبية، وفي أمريكا الشمالية، وفي أوروبا.

أما بالنسبة لعمليات النمو الآسيوية فلا تقدم الكتب المدرسية الضروري من الرسوم التصويرية، أو النماذج، أو الرسوم التخطيطية التي تصلح للتعميم، في فصل مُعد بشكل مُنظم. وأحد الأمثلة على ذلك: يعيش سدس سكان العالم في الهند، ولا يزال سبعون في المائة هناك يقيمون حاليا في الريف. بيد أنه في عام ٢٠٣٠، وحسب تقديرات الأمم المتحدة، سيعيش هناك ستمائة مليون نسمة في مدن. إذ تنمو كالكتا، ومومباي، ودلهي بسرعة لا تُتصور تقريبا، ولا تستطيع المؤسسات الدولية الخاصة بالأبحاث المتعلقة بالمدن، ولا السلطات المحلية إنجاز محاولة تسجيل سرعة النمو التحضري ومداه في خطط دقيقة مثلا. وهكذا بلا كلل وبدون جدوى يحاول القائمون على أمر المدن والباحثون في شؤونها قياس وتسجيل التحضر الدائم التغلغل فيما حوله من المناطق بالوسائل العادية.

وعلى كل حال فلا يزال سياسيون وصحفيون وباحثون دوليون يزورون المدن الآسيوية، أما المدن الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء فهي نائية تماما، وليس جغرافيا فقط، ودرجة تحضرها لا تُعد استثنائية فقط، كما أن طريقة تحضرها تتم بمنأى كبير عن تيارات التجارة، والمعلومات، والاتصالات التابعة للاقتصاد العالمي. إن النمو القوي للمدينة في السنوات الأخيرة في أديس أبابا (في إثيوبيا)، وفي مابوتو (بموزامبيق)، وبوجه خاص في لاغوس (بنيجيريا)، يعتمد على قوى يعجز المرء عن وصفها تقريبا، فهل لا يزال يمكن إدراك ما يحدث حاليا في بعض المدن الإفريقية؟، وكيف يمكن وصف الأبعاد التي وصل إليها في الأثناء الجوع، والفقر، والعوز، والحروب، والأوبئة، والعنف، والتشريد؟. من المؤكد أن الانهيار الاقتصادي، والحروب، والمجاعات هي التي تسوق السكان من الريف إلى المدن. ومن المؤكد أن الكوارث تؤدي إلى أحوال كارثية في المدن؛ في وسطها، وفي ضواحيها.

المدينة ككائن توسعي

لم تعد هناك اليوم دولة بدون مدن. لقد حدثت ثورة تاريخية. بيد أنه خلافا للأحداث الكبيرة؛ مثل الثورة الفرنسية، أو وثيقة إعلان الاستقلال الأمريكي، فإن الثورة التحضرية هي عملية طويلة الأمد، وأقرب شبها بعملية تطور. إننا نعيش في أزمنة تحضر لا رجعة فيه. لقد جذبت المدن العالم إليها، جذبت البشر من الريف، كما جلبت إليها ثروات المناطق المجاورة لها - باعثة بذلك الحركة في بعض العوالم. لقد حول التطور التحضري العالم إلى مدينة، وفي المقابل تحولت المدينة إلى عالم. توسعت المدينة ككائن عالمي، لدرجة أن المدن في كل مكان لم تعد لها حدود. لم تعد المدينة مكانا مُطوقا بالأسوار، يدع المهاجرين إليه هائمين خارج أبواب المدينة. لقد أُزيلت الحواجز المنيعة في أوروبا، وفي أماكن أخرى منذ مدة طويلة، وأصبحت المدينة تضم الأرض، والبشر، والعالم، كما توسعت مكانيا، وامتدت إلى الريف، وإلى العالم.

لقد انفتح الحصن: سواء في لوس أنجلوس، أو في القاهرة، أو في جوهانيسبرغ - وبقدر ما تنفتح المدينة وتصبح عالما، لأنها تضم عددا كبيرا من الرغبات والقيم الثقافية، يزداد مضمون الشكل التحضري القابل للانتشار. ولكن هل سيكون للوضع الناتج عن انتشار المدن كشكل حياتي متسيد نهاية سعيدة مع البشرية؟. إن الرضا بالازدواجية، والتزود بقوة التزامن، وتعلم حب ما هو متناقض، والقدرة على التعايش مع القوة الكبيرة لـ «تعدد النواحي» تُعد كلها مهمات تحضرية في كل مكان.

ليس هناك ما لم يتم بعد مثل المدينة، ولهذا فإن لها مستقبلا. وحيث يلتقي البشر، وتوجد أماكن تبادل الثقافات، ويتمكن الغرباء من التلاقي، ينشأ التحضر. إن الابتهاج بـ «سعادة التلاقي» (كما يقول سيباستيان كلاينشميدت) ينبعث عندما يؤدي التبادل إلى مزيد من التطور، وعندما يتم التفاهم. ولا يمكن للتطور الاجتماعي، سواء في النصف الشمالي للكرة الأرضية، أو في نصفها الجنوبي، التخلي عن هذه الثروة التحضرية الناتجة عن تلاقي البشر. ولهذا فإن المدن ستستمر في كونها مواقع ثقافية خلاقة، ومواطن مولد الجديد، وأماكن قوة التجديد بالنسبة للفرد وللمجتمع. إن صيرورة المدينة عالما تقوي سريان الروح في المدينة كمكان للتلاقي؛ إنها تطلب من سكان المدينة الاستعداد للأخوة الإنسانية. وإذا ما كنا قادرين ومستعدين لذلك، فسيكون للمدينة مستقبل، بكونها ساحة الاتصالات التي تخدم البشر والثقافات.

ترجمة: محمد الخشاش

إلزا هيلبريشت: مدرسة في معهد الجغرافيا بجامعة ميونيخ.

المصدر: Zeitschrift für Kulturaustausch, 3/2002

مغزى الأحياء الفقيرة

ما يتمناه فقراء سكان المدينة

تعتبر شيلا باتل إحدى أهم ناشطات المجتمع المدني في الهند، وهي كافحت طويلا من أجل تحقيق المساواة الاجتماعية في هذه الدولة المترامية الأطراف. نيكولا ريشتر أجـرت معها الحوار التالي حول انتشار الأحياء الفقيرة.

نيكولا ريشتر: قـال عـارف حـسن، مؤسس التحالف الآسيوي للمساكن الصحية، "لسنا في حاجة إلى التقليل من الأحياء الفقيرة، وإنما إلى المزيد منها". هل توافقينه على ذلك؟

شيلا باتيل: إذا لم توفر الحكومة ولا الأسواق بشكل كاف مساكن معتدلة الثمن، فمن الأفضل أن يبني الفقراء لأنفسهم بيوتا، بدلا من أن يظلوا بدون مساكن. ومن هذه الناحية فإني أوافقه.

إنه يرى أنه يجب النظر إلى الأحياء الفقيرة من زاوية أخرى.

الكثيرون منا، نحن "العاملين في الأحياء الفقيـرة"، يعتبرونها رد فعل إزاء مشكلة لا تهتم بها الدولة، ولا تريد حلها.

ما هو الحل الذي تقدمه الأحياء الفقيرة؟

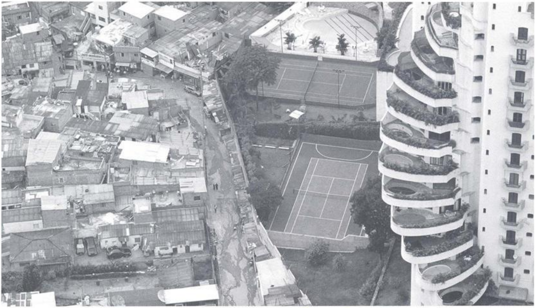
الأحياء الفـقيرة هي نوع من مساعدة الـذات، يقوم به الفقراء، ويتمثل فـي بنائهم مساكن لهم بدون دعم من الدولـة. إذ في الدول الصناعـيـة تـدعم الدولة ثلاثين إلى أربعـين في المائة من المساكن، أما في الهند فتنعدم المساكن التي يمكن شراؤها، ولهذا فإن بناء مثل هذه المساكن يتم بأي مواد، وهكذا تنشأ الأحياء الفقيرة. إن الأمر هنا لا يدور حول ما إذا كان ذلك يطيب لنا أم لا، وإنما يجب الإقرار بأن الأحياء الفقيرة تؤدي غرضـا معينا ـ وذلك في مجال لا تقوم فيه المؤسسات المالية، ولا الحكومة، ولا السياسيون بواجباتهم.

الأحياء الفقيرة ظاهرة خاصة بالمدن؛ ففي الدول النامـية يعيش ثلاثة وأربعون في المئة من البشر القادمين من مناطق ريفية في أحياء فقيرة؛ أي معظمهم. فهل أصبحت العلاقة بين المدينة والفقر أقوى بسبب العولمة؟

العـولمة تجعل كـوكب الأرض كـوكبـا حـضريا. واتـساع الحـضر يـزداد بأسرع من رد فـعل المؤسسات المنظمة. وينبغي علينا ألا نتوهم أن أحوال سكان الريف جيدة. إنهم يأتون إلى المدن لأن حياتهـم في القرى مضنية للغـاية، ويتوقعون أن يجـدوا في الأماكن الجديدة حيـاة مغايرة وآفاق عمل أفضل. بيد أنه في الأغلب لا يستفيدون هم أنفسهم من ذلك، وإنما أولادهم ـ هذا ما يعتقدونه هم أنفسهم على الأقل. إن الهرب من الريف حدث أيضا في الحضارات الغربية ـ ولا يزال يحدث ـ وحاليا يحدث طبعا وبالدرجة الأولى في آسيا وأفريقيا.

ما الذي يأمله البشر من انتقالهم إلى المدن؟

في دول العالم الثالث يشاهد كل المواطنين تقريبـا في التلفاز نفس البرامج التي يشاهدها الناس في كل مكان في العـالم. إنهم يأملون في أسلوب لـلحيـاة، وفي حيـاة أفـضل، وفي تعليم أفـضل، وفي حالة صـحيـة أفضل، وفي مـزيد من العـمل. وهل الفقـر إلا عدم قـدرة المرء على مغادرة المكان الذي وُلد فيه؟.



وهل يحيا الجيل الثاني حياة أفضل فعلا؟

كل شيء نسبي. بعض الأسر تأتي إلى مومباي، ويعيش أفرادها في الشوارع، ويتناولون وجبتين في اليوم، ويذهب أولادهم إلى المدارس. إن ذلك يعد بالنسبة لهم تحسنا كبيرا، مع أنه قد يكون بديهيا بالنسبة لي ولك.

ما الذي يحتاجه سكان الأحياء الفقيرة غالبا؟

المنشآت الصحية والأمان، وقبل كل ذلك الاعتراف بأنهم من مواطني الدولة. إذ في كثير من المدن تجري معاملة الفقراء وكأنهم لا حق لهم في العيش فيها، بل ويفضل البعض إرجاعهم إلى القرى. إن التحدي الكبير (بالنسبة لسكان المدن) يتمثل في الاعتراف بأن هناك فقراء يعملون في هذه المدن، ويتناولون وجبتين فقط في اليوم، ويذهب أولادهم إلى المدارس، ومع ذلك لا يجدون مباشرة مأوى لهم.

ماهو التغير الذي طرأ على عملك مع منظمة SPARC التي قمت بتأسيسها عام ١٩٨٤، والتي تشجع مراكز الثروات المحلية؟

على الفقراء أن ينظموا أنفسهم إذا ما كانوا يريدون إحداث أي تغيير، إذ في كثير من الدول لا يتغير أي شيء من تلقاء نفسه. وإضافة إلى ذلك فإن من يشاركون في المساعدة على تطوير المدينة قليلون جدا، لأن ذلك يستغرق وقتا طويلا جدا، فالكثير من الأسر التي أعمل معها منذ عام ١٩٨٦ وجدت كل منها اعتبارا من هذا العام فقط مسكنا مضمونا. إننا نتلقى التشجيع من السيدات اللائي نقوم نحن بمساعدتهن. إذ إنهن يردن العمل بجدية من أجل الحصول على مسكن لأولادهن. والفارق الكبير بين الماضي والوقت الحالي هو أنه تزايدت لدى الحكومات ملاحظة أن من الواجب الاستثمار في المدن. إذ إن الكثير من الأموال القادمة من أوروبا تستثمر في تنمية الريف، اعتقادا في أن ذلك سيحول دون نشوء الأحياء الفقيرة، الأمر الذي تبين عدم صحته.

قد أبرزت دور المرأة، ولكن كيف يمكن إشراكها بشكل أكبر في القضايا العمرانية؟

المرأة مشاركة تماما في قضية التحضر. إذ في حي الفقراء تقوم المرأة بكل شيء. إنها تنظم مسألة السكنى، وتدافع عن مسكنها. وإذا لم يتم دعمها فسيبقى الكثير من الأمور المهمة جدا مهملا.

هلا ذكرت لنا بعضا من هذه الأمور الهامة؟

لنأخذ المرحاض في البيت. إن معظم المساكن التي تبنيها الحكومة في الهند للفقراء صغيرة جدا؛ واحد وعشرون مترا مربعا. وفي هذه المساكن يوجد المرحاض إلى جانب المطبخ مباشرة، وغالبا ما تكون قنوات الصرف غير كافية، الأمر الذي يضر بالناحية الصحية في سائر المسكن. إن مثل هذه الأمور لا تعن للحكومة ولا للمخططين، إن سعادتهم تتمثل فقط في القدرة على القول: "انظروا، لقد قدمنا لهذه السيدة مسكنا".

ما الذي تقترحينه بديلا عن المرحاض في البيت؟

عندما يكون المسكن أقل من واحد وعشرين مترا مربعا، وليس له أي اتصال بقنوات الصرف، ولا بالمياه النظيفة، فإن الأفضل بالنسبة للأسرة التي تسكنه، استخدام مرحاض مشترك يكون خارج المسكن. ونحن نعتزم إنشاء مستلزمات يمكن تنظيمها بشكل مشترك، وقد تم إنشاء كثير من النماذج الحديثة للأفراد ولبعض الأسر. إذ عندما يكون الناس فقراء فمن الواجب أن نشجعهم على أداء بعض الأمور بشكل جماعي. إن شبكة الأمان الاجتماعي الوحيدة التي يمتلكها البشر هي مجتمعهم.

يعني ذلك: أننا نتعلم من حي الفقراء أداء بعض الأمور بشكل جماعي؟

نعم.

ماذا تفيدنا الأحياء الفقيرة بشأن مستقبل المدينة؟

المدينة عبارة عن بوتقة تضم بشرا مختلفين في الآمال، والاحتياجات والقدرات، كما أن المدينة يشكلها كل من يعيشون فيها، ومن بينهم الفقراء، ويجب أن يعمل كل شيء في المدينة من أجل الجميع. إن أحد الجوانب السلبية للعولمة أن الأمور تدور الآن في معظم المدن لصالح رأس المال العالمي، وليس لمصلحة سكانها، مما يضر بمرونة المدن التي تجعل من الممكن أن يعيش الجميع فيها متجاورين ومتعاونين في انسجام، إذ تبدأ المدينة في أن تكون ملكا لقلة من البشر فقط. ومن الأمثلة الهامة على ذلك القوانين التي تصدر بشأن هدم الأسواق غير المصرح بها رسميا. إذ بهذا تهدم إمكانية كثيرين من الفقراء في كسب المال، الأمر الذي سيؤدي إلى البطالة، والعداء تجاه من توليهم المدينة اهتمامها الخاص. وهذا يحدث في أوروبا أيضا. إن تذمر البشر يُولد العنف ويقضي على تماسك المدينة. وبدون هذا القطاع غير الرسمي الكبير لن تسير الأمور في كثير من المدن في الهند.

ما الذي يجب عمله حسب رأيك؟ إذ إن أحد أهداف الألفية الثالثة التي تعتزم الأمم المتحدة تحقيقها إلى عام ٢٠١٠، هو تحسين ظروف الحياة لمائة مليون من سكان الأحياء الفقيرة.

سنفشل في ذلك فشلا ذريعا. إذ لتحقيق هذا الهدف لابد من توفر النشاط الفعلي في كل دولة، وفي كل مدينة، وفي كل مكان. إن إحدى مشاكل العولمة تتمثل في أن البشر يعتقدون أن الأسواق والتجارة ستقدم الحل لكل مشكلة. بيد أنه لن يتم أي حل، طالما أن الجميع لا يتعاونون. وطالما ينعدم أسلوب التعاون بين البشر على اختلافهم، والقطاع الخاص، والبلديات، والحكومة، فإن الحل سيستغرق وقتا طويلا.

وعلى كل فإننا إذا تمكنا من تقليل عدد السنوات التي يسكن فيها البشر في أحياء فقيرة، فإن ذلك سيمثل تحسنا. وحاليا يعيش الكثيرون منهم ثلاثين إلى خمسين عاما في هذه الأحياء قبل أن يحصلوا على مساكن. ومن المهم أيضا أنه تجرى أخيرا مناقشات حول الفقر في القرية، وأن هناك اتفاقا حول وجوب اتخاذ إجراءات ضده. بيد أن ذلك لن يجري بسرعة للأسف.

ترجمة: محمد الخشاش

شيلا باتل: من مواليد عام ١٩٥٢ في مومباي. أسست عام ١٩٨٤ منظمة تشجيع مراكز الثروة المحلية.

من مجلة: Zeitschrift für Kulturaustausch, 3/2002

Michelle Provoost ميشيل بروفوست

تخطيط المدن والصراع على العالم الثالث

المخابرات المركزية الأمريكية سيدة مشاريع البناء

شيّدت في الخمسينات والستينات مدن جديدة في جميع أرجاء العالم، فكان شكلها المتكرر المتناسب مع متطلبات النمو السكّاني العالمي مثيراً للدهشة. فمدن مثل Villes Nouvelles في محيط باريس و New Towns بالقرب من لندن والأحياء الجديدة في ستوكهولم وهولندا أقيمت كلّها على أفكار حركة «حديقة المدينة» من ناحية، وعلى فصلها عن محيطها ووظيفتها الاجتماعية وفق تصوّرات تراتبية من ناحية أخرى، مستوحاة كلّها من تخطيطات المدن الحديثة. المؤرخة المعمارية ميشيل بروفوست التي تعمل حالياً في مشروع بحث حول طوبولوجيا المدن الحديثة مع زملائها من مؤسسة Crimson Architectural Historians تعرض في مقالتها المنشورة هنا أولى نتائج بحثها هذا. فتكشف عن دلالة إستراتيجية تخطيط المدن الحيادية ممثلة بنشاط مخطط المدن اليوناني قسطنطينوس دوكسيادس باعتبارها أداةً من أدوات الحرب الباردة.

ظهرت المدن الجديدة للمرة الأولى خلال حقبة الأربعينات في محيط لندن وتحوّلت خلال فترة قصيرة إلى وصفة جاهزة لحلّ مشكلة النمو المتزايد للسكّان في غرب أوروبا. ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى اجتاح نموذج تخطيط المدن هذا البلدان النامية في أفريقيا والشرق الأوسط وآسيا، بغض النظر عن الفروق الثقافية السياسية الكبيرة بين هذه البلدان.

ولا يمكن فهم تصدير مبادئ المدن الحديثة إلا عبر خلفية الحرب الباردة عندما اشتد التنافس بين الكتلة الشرقية والبلدان الغربية لكسب ولاء العالم الثالث. وفي الوقت الذي لم تدرس فيه جهود الاتحاد السوفيتي في هذا الميدان، فإنّ من المؤكد، على العكس من ذلك، بأن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تنظمّ باستمرار تدفق مخططي المدن والمعماريين نحو المناطق المهمة إستراتيجياً، وتنظر إلى ذلك بوصفه أداة فعّالة في الحرب الباردة، فوضعت تصدير هندسة البناء وتخطيط المدن في خدمة الاستعمار الثقافي.

فورد ودوكسيادس

التحالف بين مخطط المدن اليوناني قسطنطينوس دوكسيادس ومؤسسة فورد الأمريكية Ford Foundation جعل هذه الفرضية ماثلة للعيان بشكل ساطع. فقد دمج هذا الثنائي السلطةَ والرؤيا المستقبلية والمال، فترتبت عن هذا الدمج عواقب وخيمة على البلدان النامية في الشرق الأوسط وأفريقيا. وأثبت تعاونهما بأن التنفيذ الحيادي المزعوم للمخططات الشاملة لتطوير المدن لم يكن قطّ حيادياً، إنما كان ينطوي على وعود بالديمقراطية والرخاء الاجتماعي والتحرر: فدوكسيادس فهم النموذج الحديث لتخطيط المدن باعتباره وسيلة لتحقيق الحريّة والسلام والتقدم. ولذلك فقد طوّر من أجل هذه الغاية نظاماً صارماً للتخطيط والتنفيذ الفنّي اصطلح عليه باسم «أوكيستيك Okistik»، وهو علم المستوطنات البشرية. واعتبر دوكسيادس نظريته هذه بديلاً عقلانياً وعملياً للمدن المتنامية تاريخياً وما يحيط بها من بشر ووسائل مواصلات، فكان على نموذجه الجاهز المتعلق ببناء المدن أن يخلق بيئة بالمقاييس الإنسانية ويتيح أمكانية النمو اللامحدود.

فاستطاع بموهبته السياسية وبمساعدة الكثير من المسؤولين في الولايات المتحدة الأمريكية وفي منظمة الأمم المتحدة تأسيس شبكة عمل عالمية واسعة. الأمر الذي مكنه من تخطيط وتنفيذ عدد من المشاريع، يحسده عليها زملاؤه المعماريون، ولعلّه وضع أسس مدن أكثر مما وضعوا كلّهم مجتمعين. فلم يفلح خوزيه لويس سيرت على سبيل المثال في تحقيق مشروع واحد من مشاريعه التي وضعها لأمريكا الجنوبية، وكذلك الأمر مع لو كوربيسيه الذي اكتفى بتخطيط مدينة «جانديغار» الهندية. وعلى العكس من ذلك قام دوكسيادس بتخطيط مدن حديثه وبنائها في كلّ زاوية من العالم: في غانا وزامبيا والسودان ولبنان وباكستان والعراق والولايات المتحدة الأمريكية.

فكيف تمكّن مكتب بمفرده بناء العديد من المدن الكبرى في جميع أنحاء العالم، في الوقت الذي خاب فيه أمل أهمّ مهندسي المدن في أداء هذه المهمة؟ في الواقع أنّ دوكسيادس لم يحقق إمبراطوريته هذه فقط بفعل شخصيته الجذّابة أو نوعية عمله، إنما بفعل الدعم الأمريكي الذي حظي به قبل كلّ شيء.

هذا الدعم وفرته له مؤسسة فورد، وهي وقف خاص أسسه هنري فورد شخصيّاً في الثلاثينات. وأعيد تركيب الوقف

لتتسع نشاطاته فتتجاوز حدود الولايات المتحدة. ورسمت أهدافه في ذلك الوقت تحت إشراف بول هوفمان، المنسّق السابق لخطة مارشال في ألمانيا. وفي إطار مهمته تلك تعرّف هوفمان في أثينا على دوكسيادس الذي جمّع آخر نقوده ليقيم حفلة على شرف هوفمان، قدّم فيها رقصات يونانية إلى حدّ ما، فكان ذلك استثماراً جيّداً مثلما اتضح فيما بعد.

قاد هوفمان من خلال مؤسسة فورد حملة طموحة من أجل السلام العالمي وتحسين وضع العالم وتعليم غير المتعلمين وتربيتهم على قيم الحضارة الغربية الديمقراطية. وحاولت مؤسسة فورد تحقيق هذه الأهداف عن طريق الاستثمار في قطاع التعليم قبل كلّ شيء، وكذلك عن طريق بناء المدارس وبرامج تحديث القطاع الزراعي. وعلى الرغم من أن تخطيط



Eric Baudelaire: The Dreadful Details, 2006

C-Print, Diasec 209 x 375 cm, Edition 5 + 1 ap

المدن لم يكن أصلاً من أولويات هذه المؤسسة، إلا أنها موّلت خطط دوكسيادس وأبحاثه بخمسة ملايين دولار، وهو أكبر مبلغ على الإطلاق يمنح إلى منظمة خاصة.

واستطاع دوكسيادس بفعل صلاته بمؤسسة فورد استغلال علاقاتها الوثيقة بالسياسة الخارجية الرسمية للولايات المتحدة. فكانت شبكة علاقاته هذه تضم جامعات مرموقة مثل جامعة هارفارد ومعهد ماسوشيستس للتكنولوجيا إلى جانب الفريق السياسي في واشنطن وعالم التجارة والمال الأمريكي. وكانت جامعة هارفارد ومعهد ماسوشيستس للتكنولوجيا ترتبطان كذلك بعلاقة وثيقة مع مؤسسة فورد، فلعبتا دوراً في ميدان البحث والاستشارة قبل كلّ شيء، مثلاً في توزيع المساعدات المالية. ومقابل ذلك موّلت مؤسسة فورد هاتين الجامعتين بملايين الدولارات. وكان هناك إجماع مطلق مئة بالمئة على أهداف هذه النخب الأمريكية في إحلال السلم والنظام في العالم وذلك من خلال تبادل المعلومات والمصالح والأموال.

ومع ذلك فإن هذه الحقيقة لم تكشف لماذا كان نشاط دوكسيادس مطابقاً بصورة مثالية لروح الإجماع هذه، وليس نشاط المعماريين سيرت Sert وغروبيوس Gropius. فما هي النوعية التي اكتشفتها مؤسسة فورد في عمل «أوكستيك»؟ وما الذي جعلها أداةً فعّالة في تنفيذ السياسة الثقافية في حقبة الحرب الباردة؟

لعل الإجابة عن ذلك تكمن في الطبيعة العقلانية الصارمة لهذا المخطط والطريقة التي عرض فيها دوكسيادس عمله بصفته علماً خالصاً. فكان يستعرض خططه على شكل شبكات جاهزة وجداول ورسوم بيانية ونماذج شديدة الموضوعية جملةً وتفصيلاً، وخالية تماماً من أيّ لمسة شخصية أو جمالية. فلا يمكن مقارنة حقبة ما قبل الكمبيوتر تلك بالعمل على الكمبيوتر في الوقت الحاضر. فكان دوكسيادس مهندساً أميناً قدم نتائج ملموسة، فنظام «أوكيستيك» الذي أوجده كان نظاماً عملياً ينطوي على رؤية مستقبلية، ويمكن أن يحصل فيه المرء على حلّ آلي جاهز لكلّ خطة إذا ما زوّد بمعلومات محلية.

طريقة العمل الموضوعية العقلانية هذه جاءت مطابقة تماماً لفلسفة مؤسسة فورد الهادفة إلى عقلنة الناس خارج الحضارة الغربية وجعلهم شعوباً محبّة للسلام. فقامت هذه المؤسسة بتصدير القيم الأساسية للولايات المتحدة مثل الحرية والنزعة الفردية وعدم الثقة بالسلطة المركزية والإيمان اللامحدود بالعلم والتقنية باعتبارهما الشرطين الجوهريين «للسلوك العقلاني». وفيما يتعلّق بتخطيط المدن فإن المرء لم يعثر آنذاك على نظرية عقلانية مدنية مثل نظرية «أوكيستيك» التي جاء بها دوكسيادس.

بالطبع وجدت الولايات المتحدة نفسها أمام مشكلة أخلاقية وهي: أيّ وسائل مناسبة يمكن أن تستخدمها الدولة الديمقراطية الجمهورية للتأثير على الأمم الأخرى؟ هنا اتضح بأن برامج المساعدات الإنسانية كانت مفيدة للغاية، وكذلك شبكة العلاقات المعقدة بين السلطات الرسمية والمنظمات غير الحكومية. وبذلك أصبح من الممكن التخلي عن وسيلة القوّة التي كانت تلجأ إليها الإمبراطورية القديمة الطراز، إذ بات ممكناً ممارسة الهيمنة عبر وسائل "حرية الاختيار" وطرقها المتبعة في الجمهورية الديمقراطية.

صراع الهيمنة على وعي البشر

أحياناً كان الطموح المتناقض إلى إحكام قبضة السيطرة يتحقق عبر العمليات الثقافية، مثلاً عبر التحايل على

المشـهـد الفنّي الأوروبي الغـربي. فقـد وصـفت الكاتبـة الإنجليزية فـرانسيس سوندرس في كتـاب نشر عام ١٩٩٩ كيف أنّ وكالة المخابرات المركـزية الأمريكية كانت ترى في عالم الفنّ الأوروبي ذي الوجهة اليسارية خطراً كامناً جعلها تخـشى من أن يتحـوّل أصحـاب الفنّ إلى الأيديولوجيـة الشـيوعـية. فكانت هذه الوكـالة تنظر إلى عـملية كـسب النخبـة الثقـافية والإبداعـية في أوروبا إلى جـانب «العالم الحرّ» باعـتبـارها ضرورة قـصوى، لأن المسـتقبل سـيكون لصالح هذه العالم الحرّ. فبدأ «الـصراع الثقافي» بعد نهاية الحرب العـالمية الأولى مباشـرة وسط أنقاض برلين، وذلك من خلال سلسلة كامـلة من الحفلات الموسيقـية والقراءات والمحاضرات والعروض السينمائية ومعارض الفنّ التشكيلي حاول فيهـا السوفيت وقوى التحالف الغـربي التفوّق على بعضهما البعض.

أمريكيين (غـالباً بالتـعاون مع متـحف الفن الحديث MoMa بنيويورك، فـضلاً عن تنظيم عـدد لا يحصى من الحـفلات الموسيقية والمؤتمرات.

وتوّج مؤتمرُ السلم العالمي الرسّام جاكسون بولاك نجماً ثقافياً جديداً للولايات المتـحدة الأمريكيـة. ورأى المسؤولون في الأسلوب التعبيري التجريدي لبولاك جميع المزايا الضرورية لتـقديم صـورة جـديدة عن أمريكا لـقارة أوروبا القـديمة: فـأسلوب رسم بولاك كـان ينضح بأيديولوجـيـة المشـاريع الحرّة، وكان جديداً وحيوياً وقويّاً ـ على الضد تماماً من فنّ الواقعـية الاشـتراكية المتـمسك بالتاريخ والذي بدا جـامداً وساذجاً. فكان على هذه التـعبيرية التجريدية أن لا تـعتبر فقط ابتكاراً أميـركياً فحسب، إنما تجـعل من نيويورك بديلاً لباريس كمركز قديم للفنّ.

وعلى الرغم من أن قضايا المعـمار وتخطيط المدن ليست من





(Doxiadis Associates, in: Architecture in Transition, London 1963)

Reproductions from: Archplus, Zeitschrift für Architektur und Städtebau, Mai 2007

وبعد سنوات قليلة من إعـلان مبادئ ترومـان وبداية تطبيق خطة مـارشال اسـتغلت وكـالة المخابرات المركـزية عمليـة التـحايل الـثـقـافي هذه وأسـست عام ١٩٥٠ «مـؤتمر السلم الـثـقـافي Congress for Cultural Freedom»، الذي كـانت مهمـتـه تكمن في "حرف الإنتلجنسيا الأوروبيـة الغربية عن ميلهـا المستتر نحو الماركـسية، وجـعلها تنظر إلى الأشـياء بطريقة تتناسب مع نمط الحـياة الأمريكية". فـخاض مؤتمر السلم الـثـقـافي "صـراعاً بغـيـة التأثـير على وعي الناس" بمسـاندة حشـد كبـيـر من المتطرفين والفنانين الذين خـابت آمالهم بالاتحاد السوفيتي في ظل سياسـة ستالين التعسفية ـ وكـانت هناك أسمـاء مرمـوقة ضـمن هؤلاء مثل جـورج أورويل وجان بول سارتر. فشنّ مـؤتمر السلم العالمي حملة ثقـافية فـعّالة، وأصـدر مجـلات في جمـيع البلدان و في مـختلف اللغـات. ونظّم في كلّ مكان من أوروبا والعـالـم الـثـالـث سيـلاً من المعـارض التشكيلـية لأعـمال رسـامين

أولويات مؤتمر السلم العـالمي، إلا أنّ دوكـسـيـادس ارتبط بنشاطات المؤتمر منذ البداية. فكان من أهم الخطباء في مؤتمر ميـلانو عام ١٩٥٥، فـتـحدث عن «التـقدم الاقـتـصادي في البلدان الـنامـيـة والـتنافس بين الأسـاليب الديمقـراطـيـة والشيوعـية». وفي عام ١٩٦٠ كان عضواً ضـمن وفد مؤتمر السلم العالمي الذي شارك في مؤتمر العـواصم العربية الحديثة إلى جانب المعماري حسن فتحي الذي كان يعمل في مكتب دوكسيادس آنذاك. وكانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية هي التي بادرت إلى عقد هذا المؤتمر، وتكلّفت مؤسسة فورد بتسديد نفـقاته. وكان التداخل بين الأشـخاص العاملين في مؤتمر السلم ومؤسـسة فورد عميـقاً لدرجة أن المرء يمكن أن يحسبهما توأمين بحقّ. وفي مـجرى الأعوام قدمت مؤسسة فورد عشـرة ملايين دولار تقريباً دعمـاً لمؤتمر السلم العالمي، ثمّ أصبحت في نهاية المطاف الممول الرئيسي له.

وجد مؤتمر السلم العالمي ومؤسسة فورد والحكومة الأمريكية والجامعـات العائدة لـ Ivy-League والمانحون الخـاصون مثل مـؤسـسـة روكفللر ومـؤسـسـة كارنيـغي Carnegie، وجدوا أنفسهم متحدين في «الحرب علـى الشيوعية» فكانوا يسعون إلى تحقيق الأهداف نفسها وبالعقلية ذاتها وينسقون مهماتهم

فيما بينهم. وإذا كان هناك شيء لايتناسب مع ميزانية مؤسسة فورد أو برنامجها فإن المرء يتصل بمدير مؤتمر السلم العالمي لكي يتولى المبادرة. وكلّ أسبوع تطّلع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية على عمل مؤسسة فورد، فتعرض الوكالة مخططاتها، وتحيلها عند الضرورة إلى العاملين في مؤسسة فورد. ويتذكر العاملون آنذاك تلك الحقبة المثيرة التي كانت مزيجاً من «السياسية المخملية» والأعمال الارتجالية والرحلات الباذخة ومناورات الخداع العديدة والأموال الطائلة، والقناعة الراسخة قبل كلّ شيء، بأنهم يعلمون فعلاً من أجل إنقاذ العالم.

فكان على دوكسيادس في هذه الدوائر أن يؤدّي، فيما يتعلّق بتخطيط المدن، الدورَ نفسه الذي أدّاه جاكسون بولاك في مجال الفنّ التشكيليّ: إذ أن أوكستيك التي ابتدعها دوكسيادس جسّدت النقيض التام للمعمار وتخطيط





المدن الاشتراكيين. فبينما كانت المدن الجديدة تقام في الاتحاد السوفيتي وفق الذخيرة التاريخية القائمة على المعالم والمحاور الواضحة وعلى بناء الساحات والمجمعات السكنية، المصممة حسب المنظور التاريخيّ الواسع، نرى أنّ دوكسيادس قد ألغى المسائل الشكلية والتركيبات المعمارية العملاقة واستبدلها بالقوالب الجاهزة والمتقاطعة كالشبكة. فقد تخطّت النماذج المقامة على غرار «المدينة الديناميكية Dynapolis» و «المدينة المأهولة Ecumenopolis»، أيْ نماذج المدينة العالمية الشاملة التي تستوعب النمو اللامحدود والتغيّر المستمر للسكّان، تخطّت جميع أبعاد التخطيط العمراني للمدن المعروفة آنذاك. فتوسعت الأحياء السكنية التي عرفها المرء من خلال المدن الجديدة New Towns وصارت تتوالد عبر قوالب شبكية متكررة ولا نهائية إلى درجة اختفاء أي تشابه يجمعها بنموذج المدينة القائمة.

وحتى أيديولوجياً كان دوكسيادس يقف دائماً إلى حدّ ما في الطرف «الصحيح»: فجعل مبدأ التنظيم الذاتي bottom-up-prinzip للبلديات الصغيرة يقف مقابل شمولية التخطيط الاشتراكي الذي تمليه الدولة. وبذلك قدّم مخطط أوكستيك الذي يحمل ملامح القدرة على التغيير والنمو اللامحدود، وكذلك عبر قناعته القائلة بأنّ كل شيء يمكن حلّه تقنياً، قدّم وسيلة مثالية للأيديولوجيا الأمريكية المتعلقة بسياسة التنمية.

مدينة الصدر

يقع الشرق الأوسط مباشرة في نقطة الضعف الجيوستراتيجية السفلى لاتحاد الجمهوريات السوفيتية، فتحول في حقبة الخمسينات إلى منطقة ملتهبة من مناطق الحرب الباردة. وبهذه الصفة أضحى الشرق الأوسط مرتعاً خصباً للمعماريين الأمريكيين. فقد ظهر هؤلاء في ركب برامج المساعدات التي كان وكلاؤها مجرد دمى مبرمجة تابعة لنظام «الائتلاف» البريطاني الأمريكي. ومنهم مثلاً فكتور غروين Viktor Grün مخترع المراكز التجارية Shopping Mall، والذي وضع تصميماً مفصلاً للعاصمة الإيرانية طهران، بينما كلّفت الحكومة العراقية في عهد الملك فيصل الثاني فالتر غروبيوس Walter Gropius و لوكوربوزييه Le Corbusier و جيبو بونتي و ألفار آلتو Alvar Aalto و فرانك لويد رايت Frank Lloyd Wright للقيام بأعمال مماثلة.

وكثيراً ما تجاهلت برامج المساعدات الأمريكية المقدمة للبنان والعراق وإيران الواقع المعقد لهذه البلدان، ففشلت معظم هذه المبادرات ذات النيّة الحسنة في تحقيق أهدافها بسبب عدم معرفة القائمين عليها بلغات هذه البلدان وأخلاق مواطنيها وتقاليدهم. وبالمقارنة مع هذه الجهود غير الخبيرة فإن الانجازات التي حققها مكتب دوكسيادس اتسمت بالقدرة العالية والفاعلية، وبالأخص في العراق، حيث كلّفت الحكومة العراقية دوكسيادس بإقامة مشروع سكني وطنيّ. وعقب هذا التوكيل أسس دوكسيادس ما يشبه «وزارة» للإسكان والبناء المدني والإعمار وتدريب المهندسين المعماريين. وبذل مكتب غروبيوس جهداً واسعاً لينجز مشروع جامعة بغداد، لكنه لم يستطع أن يشيّد سوى برج واحد بعد عشرين عاماً، وكان على فرانك لويد رايت أن يتخلى عن خططه الطموحة في بناء دار الأوبرا في بغداد بعد أن أسقط النظام الثوري سلطةَ الملك فيصل الثاني عام

١٩٥٨. وعلى العكس من ذلك فإن دوكسيادس لم يواجه أي صعوبات: إذ صمم فريقه المتعدد الاختصاصات عشرات الآلاف من المنازل وتمكن كذلك من بنائها. ومع ذلك فإن تاريخ المعمار الرسمي أولى اهتماماً كبيراً لفشل مشاريع غروين وغروبيوس ورايت أكثر من اهتمامه بإنجازات دوكسيادس.

ويعرف أغلب الناس أهم مشروع أنجزه دوكسيادس في بغداد، وذلك عبر الأخبار التلفزيونية، دون أن يشعروا بهذه الحقيقة: إلا وهو مشروع مدينة الصدر (الثورة) الذي هو عبارة عن مربعات متكررة إلى ما لا نهاية، يمكن التعرف عليها ببساطة عن طريق محرّك البحث Google Earth. فهي منطقة مزدحمة مؤلفة من بنايات بطابق واحد أو طابقين وبشوارع ضيقة وأزقة رمادية من الإسمنت. ويعرف الجميع في الوقت الحاضر هذا الحيّ السكني الذي بات يشكّل خلفية للحرب الأهلية في العراق. ويعيش اليوم في هذا الحيّ مليونا مواطن، معظمهم من الشيعة العراقيين، ويعد منطقة «غيتو» كابوسيّة معزولة تماماً، ومعقلاً للمقاومة ضد الأمريكان. وقد اكتسب هذا الحي شرفاً لا يحسد عليه، إذ أصبح مسرحاً للعبة الإنترنت: المهمة ١٦، معركة مدينة الصدر".

هذه المنطقة هي جزء من خطّة دوكسيادس لبغداد والتي وضعها عام ١٩٥٨، والمصممة وفق قواعد "أوكيستيك" التي لا تختلف عن التصميمات الأخرى التي وضعت لمدن مثل إسلام أباد وإسطنبول وتيما الغانيّة أو الخرطوم. فقد طوّق دوكسيادس المركز التاريخي لبغداد بوحدات سكنية جاهزة، متعامدة ومنفصلة، تمتد على ضفتي دجلة وتتألف من أربعين قطاعاً وتبلغ مساحتها حوالي كيلومترين مربعين؛ حيث تفصل طرق المرور العريضة القطاعات عن بعضها البعض. وقسّمت هذه المناطق بدورها إلى وحدات «بلدية» بمراكز صغيرة وأحياء سكنية تابعة لها، ووضعت تحت منظومة من «الطرق المقفلة». ويتألف كلّ مركز بلديّ من سوق ومرافق عامة ومسجد.

وصممت البيوت المتلاصقة بأسلوب يوفّر للبلديات الصغيرة أماكن «للدردشة»، وهي ملتقيات مفتوحة تستند إلى التقاليد العراقية المعروفة. وبالرغم من أن هذه العناصر يمكن أن تصبّ في السياق العام لهذه التقاليد، لكن خطة بغداد وضعت وفق نظام توالدي شامل، يصلح حسب وجهة نظر دوكسيادس لأي مدينة حارة المناخ من مدن البلدان النامية. وكان أسلوب المعمار، المصمم بطراز حديث متحفّظ، توالدياً أيضاً، وتتخلله لمسات محليّة مثل الجداريات المزينة بالنقوش العربية. فدوكسيادس ينظر إلى التأثيرات المحلية باعتبارها ذات دلالة تقنية محدودة، فصار يستعين بالتقنيات المحليّة، إلا أنه لم يتبع أسلوباً واضح المعالم ولم يعبأ كثيراً بالهوية المحليّة والتقاليد الثقافية للبلد.

وحسب وجهة نظر مشجعيه، لاسيما مؤسسة فورد، فإن النقاط الإيجابية لخطط دوكسيادس تتجسّد في طاقتها الداخلية التي تضمن بدورها التكافل الاجتماعي. وذلك لكي لا يشعر المهاجرون الجدد إلى المدن والقادمون من المناطق الريفية بالنفور من نمط الحياة المدنية أو الوقوع ضحيّةً للتصورات الغيبية، أو للأفكار الشيوعية، وهو الأمر الأسوأ.

ومن هذه الزاوية يمكن فهم المدن التي صممها دوكسيادس بساحاتها وأزقتها ومراكز بلدياتها الصغيرة بصفتها «آليات للتحرر» دقيقة الهندسة، تنتمي إلى قائمة التحديث الأمريكية المعلن عنها والرامية إلى بناء المؤسسات الديمقراطية ونظام السوقّ الحرّ.

ولعل مقارنة الوضع الراهن في العراق بالوضع الذي كان سائداً خلال الحرب الباردة تثير الإغراء: إذ أملت الولايات المتحدة الأمريكية نموذجها الاجتماعي على العراق من جديد، هذا النموذج الذي حمل هذه المرّة بصمات المحافظين الجدد وسياسة السوق الحرّ. واليوم يحذّر حتى الخبراء الذين ساهموا مساهمة فعاّلة في رسم السياسية الأمريكية في حقبة الخمسينات من تكرار الأخطاء مرّة ثانية عبر إجبار العراق على القبول بالبنى الجديدة الغربية عن ثقافته الوطنية.

مؤسسة فورد وصفت مشاريعها التي نفذتها بعد الحرب العالمية الثانية «بالخبز الأبيض» White Bread، وهو خبز بسيط طري وبلا طعم إلى حدّ ما. وعلى هذه المشاريع أن تمهّد الطريق أمام نمط غربي آخر للحياة، نمط حياتيّ فعّال ومحبّ للسلام، فتساهم هذه المشاريع بتحويل بلدان العالم الثالث إلى حضارات عقلانية. بيد أن الهندسة المعمارية وتصاميم المدن ليست خبزاً أبيض، وليست تقنية حيادية خالية من الدلالة والذوق الرفيع. بل على العكس تماماً، فالنظام المعماري وتخطيط المدن يعكسان النموذج المثالي لنمط اجتماعي معيّن.

وبغض النظر عن النقد الذي يوجهه المرء لمدن دوكسيادس، لكنها تشكّل على أية حال رؤية مستقبلية إيجابية بنّاءة يفتقدها المرء بكلّ ألم في السياسة الأمريكية الراهنة إزاء العراق.

ترجمة: حسين الموزاني

ميشيل بروفوست: مؤرخة معمارية، تعمل في الوقت الحاضر في مشروع تخطيط وهندسة مدينة هوغفليت بالقرب من روتردام.
www.thenewtown.nl

أورزولا موشيلر Ursula Muscheler

بيوت للفقراء من الطين

مشروع القرنة الجديدة لحسن فتحي

كان المعماري المصري حسن فتحي (١٩٠٠ ـ ١٩٨٩) قد بنى عدة فيلات واستراحات لأناس أغنياء، عندما تلقى في عام ١٩٤٥ تكليفا من مصلحة الآثار في القاهرة لبناء قرية جديدة لسكان قرية القرنة قرب الأقصر. كان ينبغي نقل أهالي القرية الذين سكنوا مباشرة بجانب وادي الملوك، بل وسكن بعضهم في المقابر الأثرية. كان الهدف من ذلك إبعادهم عن مناطق الحفريات ووضع حد لسرقات المقابر التي كانوا يقومون بها، ولكنهم كانوا أيضا يمثلون مشكلة اجتماعية، إذ اُعتبروا وصمة عار في المنطقة تبعد أعين السياح عن مصر التي كانت في ذاك الوقت تحت الخطى نحو التحديث.

بالرغم من وباء الكوليرا واضطرابات الحرب والأجواء الثورية في البلاد، تمكن حسن فتحي من إنشاء قرية نموذجية هي القرنة الجديدة،لم تعرف مصر لها مثيلا. ولن يستطيع أحد أن يقدر ما حققه سوى من أمعن التفكير في حياة الفلاحين المصريين الذين يصفهم الكاتب محمد حسين هيكل في روايته «زينب»: "واستعاضوا بذلك مكان الليل المقمر ونسيمه العذب وآماله وأحلامه نهار الصيف وشمسه المحرقة . . ولكنهم ما كانوا ليحسوا بذلك أو ليألموا له وقد تعودوه كما تعوده آباؤهم من قبل . . وتعودوا ذلك الرق الدائم ينحنون لسلطانه من غير شكوى ومن غير أن يدخل إلى نفوسهم قلقا، يعملون دائما ومن غير ملال ويرقبون بعيونهم نتائج عملهم زاهرة ناضرة ثم يقطف سيد مالك ثمرتها."

في كتابه «فلاحو مصر Fellah d' Egypte» يصف الأب أيروط المصري الذي عرف الكثير عن حياة الفلاحين في مصر من خلال عمله كواعظ، معيشتهم البائسة التي تحددها الجماعة القروية: "إنها القرية وليس البيت، هي التي تمثل الكل، إنها نمط من الجماعة يفوق العائلة والعشيرة". القرى كبيرة وأحيانا يسكنها خمسة عشر ألف شخص، وبيوتها متلاصقة بكثافة في مساحات ضيقة من أجل الحفاظ على المساحات المزروعة، وتبدو كلها متشابهة. والشوارع لا يزيد عرضها عن مترين، وعلى الناحيتين هناك واجهات بيوت بلا نوافذ. قليل من البيوت تزيد في عرضها عن خمسة أمتار وفي ارتفاعها عن مترين، وقلة من الناس لديها دور ثان. وعمر هذه البيوت قصير نظرا للمادة التي بُنيت منها وطريقة الإنشاء. فكثيرا ما تدمر الأمطار والفيضان والحرائق قرى بأكملها في أقصر وقت.

يرد في كتاب أيروط "إقامة الفلاح، مثل عمله مرتبطة بالأرض، وبطريقة الحياة وبنائها الاجتماعي. الأرض نفسها التي تطعمه، هي التي تأويه: إنه ساكن الأرض بكل معنى الكلمة. هنا تملي المادة كيف يكون الشكل". الجدران مصنوعة من الطوب النيئ المجفف بفعل حرارة الشمس، بسمك ٣٠ إلى أربعين سنتيمترا، ومن أجل الوقاية من أشعة الشمس وتوفير الدعامات الخشبية لا توجد بالجدران سوى فتحات قليلة جدا، الباب وكوات صغيرة.

السطح مصنوع من ألواح تفرق بينها مسافة ستين سنتمترا، ويوضع فوقها سعف نخيل، وأعواد ذرة وسيقان نباتات، ثم توضع فوقها مرتبات سميكة، ثم طبقة من المونة الممزوجة بالرماد. في الصيف يستخدم السطح للنوم وفي باقي السنة كمخزن للأدوات وللحبوب، ولوقود الفرن وأحيانا كحظيرة للدجاج.

ويروي أيروط أن داخل البيت الذي يسكنه الفلاح مع حيواناته مظلم وكريه الرائحة. نصف هذه البيوت تكون مساحتها من خمسة إلى ثلاثة أمتار، الأثاث مقصور على فرن للخبيز وقلة ماء وحلة للطبخ، ووعاء. النصف الآخر من البيوت مكون من غرفة أو غرفتين أو ثلاث غرف: قاعة بها كنبة، هي الغرفة الأكثر إضاءة في البيت وتستخدم كغرفة للضيوف، ووراءها غرفة للنوم والمطبخ وبها فرن للخبيز، ينام عليه أهل البيت في الشتاء، ونظرا لعدم وجود مدخنة يخرج دخانه عبر كوة في الحائط. وخلف هذه الحجرة توجد زريبة شبه متوارية للحمار ويمكن النفاذ إليها من هذه الحجرة. الأرضية من الطين الذي دهسته الأقدام، والأثاث مكوم في الأركان: موقد بريموس، وحلة أو حلتان للطبخ، وطبلية مدورة، ومراتب للنوم، وفراش، وأحيانا سرير مصنوع من عيدان النخيل، وأقفاص للدجاج، ومرآة وصندوق من الخشب، موجود بالقرب من الموقد وتحمل ربة البيت مفتاحه معلقا في رقبتها، حيث توجد به كنوز العائلة الصغيرة. وقد نصح أيروط بأنه من أجل أن يبني المرء للفلاحين لا بد من التعرف على عاداتهم واحتياجاتهم



منظر من دكان سبيتاني، القدس، يوم عيد الأم ٢٠٠٥

Photo: Kai Wiedenhöfer, from his book Wall, published by Steidl Verlag (Göttingen 2007).



وميولهم. وأنه لا ينبغي أن يضع المرء الفلاح أمام عالم جديد تماما، لا يستطيع أن يكتشف فيه أي شيء من تقاليده، ومن الأشياء التي يرى أنها جميلة. "للوصول لبناء البيت المثالي، لا بد للمرء أولا أن يدرس البيت على حالته، ويراقب بعناية وصبر وتعاطف العادات والتقاليد الريفية". وإذا لم يفعل ذلك فسيفشل، لأن الفلاح سيحاول حتى في البيئة الجديدة أن يحافظ على طريقة حياته المعتادة. سيغادر بيوت الخرسانة المسلحة التي ترتفع درجة الحرارة داخلها بسرعة، ليبني لنفسه كوخا من القش. وسيسد النوافذ إذا كانت كبيرة جدا خوفا من الشمس والسرقة. لن يستخدم دورات المياه الجديدة داخل البيت، وسيبني داخله الأفران التي تنقصها. ويعرب أيروط عن مخاوفه من أن بيتا جديدا لن يؤدي إلى التغير الفوري لطريقة الحياة التي دامت آلاف السنين. ولذا فلن يكفي أن تبني للفلاح بيتا جديدا أفضل من بيته، لا بد أن تعلمه أن يستخدم المرافق الجديدة وأن توضح له وجه أفضليتها. "هذا الإعداد أكثر أهمية من التحقيق المادي للبناء".

وعلى ما يبدو فإن حسن فتحي الذي زار قرية للمرة الأولى في حياته وهو في السابعة والعشرين من عمره - رغم امتلاك أبيه لكثير من الضياع - اتبع نصائح أيروط لدى بنائه القرنة الجديدة. لقد درس طريقة حياة أهل القرنة وقسم في مخططه القرية الجديدة إلى أربعة أحياء مراعاة للعشائر التي سكنت القرية القديمة، وتفصل هذه الأحياء شوارع بعرض عشرة أمتار، بحيث تستوعب هذه الشوارع حركة المرور الرئيسية وتوفر تهوية جيدة للقرية. وتصب هذه الشوارع في ميدان عام يحيطه مسجد ومسرح مكشوف وخان. والخان كان مخططا له أن يصبح نُزلا للسياح الذين يزورون وادي الملوك الذي يبعد مسافة خمسة كيلومترات عن القرية، وبازارا لبيع القطع الفنية التقليدية. وكان يشبه استراحة القوافل التي عرفتها القاهرة في القرون الوسطى بحوشها الذي تحصنه بوابة عريضة وأروقتها المخصصة للبضائع والتجار. وفي أطراف القرية كانت هناك مدرستان ابتدائيتان ومدرسة للتدريب المهني للبالغين، وملعب رياضي وساحة سوق.

كان بناء المساكن في الحي موزعا بشكل غير منتظم على قطع من الأراضي، شكلت شبكة من الشوارع كثيرة المنعطفات تمتد مجددا إلى تجمعات سكنية أصغر. تدور مجريات الحياة اليومية في هذه الأزقة التي يبلغ عرضها ستة أمتار، والتي تشكل امتدادا للبيت كساحة لعب للطفل ومكان لعمل البالغين وتوفر الظل.

لم يكن هناك بيت يشبه الآخر، رغم أن البيوت جميعها مصنوعة من العناصر ذاتها، كلها بها قباب وقناطر ومصنوعة من الخامة نفسها: الجدران من الطين، الممزوج بالقش والذي صنعت منه قوالب الطوب اللبن. والأسقف من جذوع النخل وسعفه. يقول حسن فتحي "لا يوجد في الطبيعة شخصان متشابهان، وحتى لو كانا توأماً وتبدو هيئتهما الجسمانية متطابقة، فإنهما يختلفان في أحلامهما. تنشأ عمارة المنزل من الأحلام. لذلك لا نجد في القرى التي يبنيها سكانها بأنفسهم، بيوتا متطابقة تماما".

لبناء البيوت أحضر حسن فتحي بنائين من أسوان، لأنه كان لا يزال باستطاعتهم البناء بالطريقة التي ترجع إلى آلاف السنين، أي بالطوب اللبن الذي جففه الهواء، ودون الاحتياج إلى سنادات خشبية كانوا يبنون أقواسا وقبابا، وهو علم تلاشى إلى حد كبير لدى باقي المصريين. كما جذب فتحي السكان المستقبليين لهذه البيوت، للعمل في بناء المنازل كي يصبحوا على معرفة ودراية بطريقة البناء والخامات المستخدمة، ولكي يصبحوا في المستقبل قادرين على الحفاظ على هذه البيوت وأن يساعدوا بعضهم في بناء منازل أخرى. أراد أن يعلم الفلاحين المصريين الفقراء كيفية التعامل بشكل سليم مع خامة البناء، التي يمكنهم أن يجدوها بلا مقابل في تربتهم، وأن يبنوا بأرخص القوى العاملة تكلفة، ألا وهي قواهم أنفسهم. كان حسن فتحي مقتنعا بأهمية أن يقوم هؤلاء بمساعدة أنفسهم ومساعدة بعضهم البعض، لأن رجلا واحدا لن يستطيع بناء منزل لوحده، لكن عشرة رجال يستطيعون عمل ذلك بسهولة.

لم يلجأ حسن فتحي في بناء القرنة الجديدة إلى الطريقة التقليدية في البناء بالطوب اللبن فحسب، بل وربطها أيضا بالممارسات الحياتية في القرية وحاول بحذر أن يحسنها. وهكذا جلبت القرويات في القرية الجديدة ماءهن من بئر القرية، نظرا لأنه مكان للتواصل خارج البيت، لكن فتحي سقفه بالقباب. وكذلك بقي الناس يعيشون مع حيواناتهم لكن فتحي فصل الزرائب عن البيوت. وظلت هناك أكوام من السماد لكن فتحي غطاها وجعل وقود الفرن الذي كان يوضع فوق الأسطح عرضة للحريق، يُخزن تحت أغطية.

من ناحية النمط اعتمد حسن فتحي على تقاليد المدينة العربية والبيت العربي: البيوت تطل على شوارع ضيقة ملتوية، جدران البيوت مصمتة بحيث تحمي حرمة البيت وتمنح المار ظلا، وبالبيوت أفنية داخلية وتفاصيل معمارية ذات خصوصية كالمشربية والملقف الذي يجلب لساكن البيت نسمة الهواء والطراوة. وتتحكم المشربية، وهي عبارة عن فتحة في الحائط الخارجي تغطيها شبكة من القطع الخشبية الصغيرة المدورة، في دخول الضوء والهواء وتتيح لمن بالداخل النظر إلى خارج البيت في حين تحمي عالم البيت الداخلي من أعين الغرباء. الملقف وهو عبارة عن منور فوق المبنى له فتحة في الجهة التي تغلب فيها حركة الرياح، فهو يلقف الريح ويمررها إلى داخل المبنى.

عندما سار مؤرخ الفن الفنلندي غوران شيلدت في منتصف الخمسينيات بسفينته «دافنه Daphne» في النيل، رأى أثناء مروره عدة مرات بالقرب من الأقصر قرية غير مألوفة المنظر. وحسبما يروي في كتاب رحلته «مركب الشمس»، يسكن هذه القرية الفلاحون، وهي مطلية بالأبيض ولها أسقف كالقباب. وعندما سأل السكان وعرف اسم القرية: القرنة الجديدة، ثم أخذه الناس إلى حسن فتحي الذي كان يسكن في بيت بالقرب من ساحة السوق.

وحسب شيلدت فإن الجزء الأساسي من القرنة الجديدة كان تم الانتهاء من بنائه، لكن كثيرين من سكان القرية القديمة، ولأسباب متنوعة لم يرغبوا في التخلي عن سكنهم القديم لقربه من موارد رزقهم في مجال الحفريات الأثرية، ورفضوا الانتقال إلى القرنة الجديدة. وهكذا عاشت في البداية مائة عائلة في القرية، أغلبهم ممن ساعدوا في بناء البيوت. وقال له حسن فتحي إنها مسألة صبر، لا بد للمرء أن يقنع الناس أن الوضع هنا أفضل لهم.

وحسب شيلدت، فإنه برغم الموافقة المترددة للفلاحين، بإمكان حسن فتحي على الأقل في القرنة الجديدة الوصول لهدفه وهو تحديث القرية المصرية على أسس تقليدية، لكن ذلك سيتم فقط بسبب شخصيته وتأثيرها. "بفضل تفانيه في عمله، واتصاله الشخصي مع كل عائلة، وعدم توقعه الكثير وبفضل شخصيته القوية، سكن القرية ربما ٥٠٠ عائلة، وأصبح لديهم نموذج يحتذونه وهم فخورون وأمناء ومهذبون ونظاف وتقدميون وناجحون ومستعدون للتعلم".

لكن فتحي لم يتمكن من إقناع الحكام الجدد في القاهرة، إذ إنهم اعتبروا أن البناء بالطوب اللبن ليس عصريا. وقال شيلدت إن فتحي حكى له بحزن أن محاولته للقيام بعملية ترميم وصيانة للقرى المصرية فشلت. ففي القاهرة لم ترغب الحكومة في سماع أي شيء عن الطوب اللبن المجفف بفعل الهواء، بل سعت إلى بناء بيوت نمطية مصنوعة من مواد بناء صناعية، وأن يجري ذلك من خلال تخطيط وتنفيذ مركزي. وهو موقف كان غوران شيلدت يؤيده، فبالنسبة له كان مشروع حسن فتحي «فكرة رومانسية»، لا يمكن تحقيقها إلا كحالة فريدة وذلك بسبب الدعم المالي الكبير من الدولة ومشاركة فتحي المتحمسة للمشروع ـ كمبدأ على الأقل. لأن تحقيق مستوى معيشة مرتفع للجماهير الغفيرة في مصر لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال التصنيع والترشيد والإنتاج الضخم.

وهو يرى أن "وهم فتحي يكمن في أن عمله نجح بفضل قوته هو ذاته، نجح في أن تصبح القرنة الجديدة هي البذرة التي يفترض أن تنمو على أثرها تدريجيا قرى أخرى في مصر وتزدهر. وفي الحقيقية تستند القرنة الجديدة في وجودها فقط إلى شخصه وحضوره، بمجرد أن يغادر، ستمتص القرية في أعوام قلائل وتذوب في قرى فلاحي مصر القديمة، حتى يأتي زمن مصر الصناعية والذي سيأتي بلا محالة".

لكن مصر في الخمسينات لم تكن ناضجة لذلك. كانت بلدا فقيرا ومستوى معيشة فلاحيه كان من أدنى مستويات المعيشة على مستوى العالم. في عام ١٩٥٢ عاش أكثر من سبعين في المئة من المصريين في الريف وأغلبهم كانوا مزارعين صغارا، أومستأجرين للأراضي الزراعية أو عمال زراعة في أوضاع تشبه العبودية، ووفقا للإحصاء السكاني عام ١٩٤٧ كان ٦٧ في المئة من الرجال و٨٧ في المئة من النساء من الأميين. كان الفلاحون يشربون مباشرة من ماء النيل الذي كانت تُصرف فيه كل مجاري البلاد، وكانت تغذيتهم غير كافية وغير متنوعة في عناصرها. البلد بأكملها كانت أشبه بمخيم للمرضى. مئة بالمئة من الفلاحين المصريين كانوا مصابين بداء الأميبية، و٩٢ في المئة بداء الديدان، و٨٩ في المئة بمرض التراكوما وهو من أمراض العيون المعدية، أي أن كل فلاح تقريبا كانت لديه حوالي ثلاثة أمراض ومتوسط العمر المتوقع كان ثمانية وعشرين عاما فقط.

في ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ بعد أن أطاحت لجنة الضباط الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر بحكم الملك فاروق، وعد الحكام الجدد الشعب بمصر جديدة. سيتم مكافحة الفساد وسوء الإدارة والفقر والتخلف، وإجراء إصلاح زراعي وتحويل مصر إلى بلد صناعي. وعبر عبد الناصر في كتابه «فلسفة الثورة» عن رغبته في العمل بشكل حقيقي وعملي من أجل ضمان مستقبل سعيد يعمه الرخاء للشعب المصري وعلى وجه الخصوص للفلاحين والعمال وأبنائهم. لكن كان على المصريين الفقراء أن يظلوا في انتظار المستقبل الموعود لفترة أطول، فالنظام الجديد ركز في البداية على تسليح الجيش ومشروع السد العالي الذي حظي باهتمام دولي وعلى انتقال البلاد إلى مرحلة التصنيع. وكان لمصنع حلوان للحديد والصلب ومصنع الآلات في بلبيس وحفارات البترول في سيناء أولوية على بناء المساكن والمدن العمرانية.

أما حسن فتحي فكان يرى أنه من الممكن وأيضا ينبغي إخراج أهالي الريف من بؤسهم وفقرهم، واعتبر أن مهمة الجميع، حتى المعماريين أن يعملوا من أجل ذلك. لأن هؤلاء الفقراء الذين يعيشون على حد الكفاف لا يحتاجون فقط إلى أطباء حفاة، بل وإلى معماريين حفاة، يستطيعون أن يسهموا في تحسين شروط سكناهم وحياتهم.

وطالب فتحي بأن يكون المعماري أكثر من مجرد مصمم لبيوت الأغنياء. لا بد أن يكون لديه اهتمام بهؤلاء الذين لا مال لديهم ولا نفوذ ولا صوت، بالرغم من أن مثل هذه المشاريع لا تُكسب المرء مجدا. "في العادة لا يقوم المعماري بعمل تصميماته للفلاحين في القرى. ولن تخطر لفلاح

فكرة تكليف معماري للعمل لحسابه، ولن يفكر معماري في أبدا في العمل بموارد الفلاح البائس. يصمم المعماريون للرجل الغني ويفكرون في تلك الأثناء فيما سيدفعه الغني". لكن نظرا لأن هناك أناسا كثيرين في العالم الثالث لا يمتلكون بيتا ولا محل إقامة يحميهم من الريح وتقلبات الجو، فقد أصبح على المعماري أن ينقذ حياة هؤلاء. على المعماري أن يتعلم العمل بموارد الفلاح البائسة ويبحث عن البدائل الإقليمية المتاحة لطرق البناء العالمية السائدة التي لا تناسب المكان. لتسكين الفقراء في مصر، يعتبر تقليد البناء بالطوب اللبن الموجود في البلاد مناسبا جدا، لأن الخامة موجودة، والقوى العاملة من الناس أنفسهم موجودة، والتقنيات التقليدية للتكييف الطبيعي تعمل بنجاح.

من يريد أن يبني وفقا لإمكانيات السكان، يمكنه أن يبني بتكلفة مناسبة، وفقط من يبني وفقا لبيئتهم وطريقة حياتهم يبني بأسلوب وظيفي. لذا فإن حسن فتحي يرى أن الواجب الأكبر للمعماري هو أن يبني وفقا للتقاليد وللمكان. في كل أنحاء العالم ولحد الآن كان الناس يبنون بيوتهم وفقا لظروفهم المناخية: في المناطق الحارة عالية الرطوبة في شرق آسيا يبني الناس أكواخا بحوائط منسوجة تتيح للريح أن تمر خلالها، في الصحراء يبنون حوائط سميكة بفتحات صغيرة، من أجل الحيلولة دون دخول الحرارة وأشعة الشمس الساخنة إلى داخل البيت.

ويرى فتحي أن طرق البناء تطورت عبر زمن طويل وتم تحسينها مرارا وتكرار وعُدلت لتناسب الظروف المتغيرة. لكن قيد التقاليد قد كُسر في كل مكان. "سعيا إلى الحداثة، تناسى كثير من أهل المناطق الحارة طرق البناء التقليدية القديمة التي دامت أجيالا والتي نشأت وفقا للمناخ المحلي، واليوم يتبنون ما يسمى بالمعمار العالمي". وهذا يعني بشكل أساسي تبني طريقة البناء بالخرسانة المسلحة، بيوت بواجهات زجاجية وأجهزة تكييف.

ويضيف فتحي أن طرق البناء القديمة لم تعد مرغوبة، والحكم المسبق على البناء بالطوب اللبن غير المحروق، ليس سائدا فقط لدى الأغنياء، بل ولدى الفقراء أيضا. هم أيضا اعتبروا أن البناء بها أمرا بائسا وغير معاصر، وصاروا يطمحون إلى استخدام مواد وطرق البناء الغربية. لكن هذه المواد وطرق البناء غير ملائمة للدول النامية، نظرا لأنها غير متطورة صناعيا ولا يمكن لها توفير نفقات هذه التقنيات. ولذا لا يبقى أمام هذه الدول سوى أن تستدين وتعيش في بيوت لا تلائم سكانها مناخيا، أو أن تعيد التفكير في تقاليد البناء الخاصة بمنطقتها.

فشلت تجربة حسن فتحي في القرنة الجديدة. لم يكتمل العمل في القرية، وحتى يومنا هذا لم تتحول إلى قرية مزدهرة. عندما تولت مصلحة الإسكان المشروع في نهاية الأربعينيات، وطلبت من فتحي أن يقرر إما أن يترك التدريس في مدرسة الفنون الجميلة أو يتخلى عن منصبه في المصلحة، غادر فتحي مصر. كانت العوائق الكثيرة والمؤامرات قد أنهكته، كما أعياه عدم اهتمام الجهات الحكومية بإسكان الفلاحين ورفض البناء بالطوب اللبن وضغوط لوبي صناعة البناء ضد الطريقة التي يعتمد فيها الفلاحين على أنفسهم في البناء.

عندما زار فتحي القرنة الجديدة عام ١٩٦١، وجدها كما تركها من قبل. لم يُبن بيت واحد جديد، وظل معظم سكان القرنة يسكنون بين المقابر كما كان الحال في السابق. فقط الأشجار التي زرعها هي التي ظلت تنمو، والأربعة وستون بنّاء الذين علمهم العمل بطريقة البناء التقليدية ظلوا يعملون بنجاح في المنطقة. "عندما نظرت إلى القرية بمسرحها المهجور وخانها الخاوي والمدرسة المهنية الخالية أيضا والبيوت القليلة المسكونة ـ المدرسة الابتدائية للبنين هي الوحيدة التي كانت تعمل ـ فكرت ما الذي كان يمكن للقرنة أن تصبحه، وما الذي يتوجب أن تصير إليه. لأن مشكلة أهالي القرنة منذ عام ١٩٤٥ لا تزال قائمة وحادة، وليس ثمة مقترح آخر للحل".

لكن بذرة القرنة الجديدة أنبتت، وإن لم يكن في مصر، ولم يحدث ذلك إلا في الثمانينات، عندما أدرك المرء في الغرب أن العلم التقليدي يمكن أن يساعد بالذات الدول المتخلفة اقتصاديا في البناء بطريقة ملائمة للبيئة وحل مشكلات عالمية كالفقر وإهدار الطاقة وتدمير البيئة. ثم أصبح حسن فتحي نجما وصار يبني في جميع أنحاء العالم. ففي عام ١٩٨١ مثلا شيد مسجدا في نيو مكسيكو وعرض على المعماريين الأمريكيين خلال فترة البناء طريقة خاصة في نقل التقنيات المعمارية ـ لقد بين لهم كيف يمكن تشييد القباب النوبية من الطوب اللبن النيئ دون استخدام سنادات خشبية.

حصل فتحي عام ١٩٨٠ جائزة نوبل البديلة والتي مُنحت للمرة الأولى في ذاك العام. وقد أدركنا من خلال تجربته في أنه لم يسع فقط إلى البناء لفقراء العالم فقط، بل كان يدعو لعمارة جديدة تصلح للفقراء والأغنياء على حد سواء، عمارة تستند إلى طريقة الحياة التقليدية وبيئة الإقليم وطرق البناء الإيكولوجية، التي تسعى مبدئيا لتحسين ظروف الحياة الإنسانية.

ترجمة: أحمد فاروق

أورزولا موشيلر: حاصلة على دكتوراه في الهندسة المعمارية وتدير منذ عام ١٩٩٢ مكتبا للتصميم المعماري وإنشاء وتعمير المدن.

من كتاب موشيلر: Haus ohne Augenbrauen

سحر نادي/ موريتز بيريندت
Sahar Nadi/Moritz Behrendt

مقاومة الزلازل

البناء البسيط في الشرق

عندما يتحدث المهندسون المعماريون والمدنيون عن الزلازل وعن سبل خفض عدد ضحاياها بالتصميم الذكي للمباني، تَرِد على ألسنتهم كل أنواع عبارات التمني.

يقول أحد خبراء الزلازل "لو أن زلزالاً بقوة ٦,٨ درجة على سلم ريختر ضرب مدينة طوكيو، لكان عدد ضحاياه أقل بكثير من عدد ضحايا الزلزال الذي ضرب مدينة «بم» الإيرانية في ديسمبر ٢٠٠٣، مخلفا نحوا من ٤٠٠٠ قتيل، لفظ معظمهم أنفاسه الأخيرة تحت أنقاض المباني الطينية التي انهارت على رؤوسهم قبل أن يتمكنوا من مغادرتها.

في العقد الأخير وحده، هزت سبعة زلازل قوية دول إيران وباكستان وتركيا وإندونيسيا. لايرجع السبب في حجم الخسائر البشرية الكبير إلى قوة الهزة الأرضية وحدها بل إلى التقصير في بناء المساكن أيضا. بعد وقوع كل هذه الزلازل، بدأت تتعالى الأصوات المندِّدة بالفساد المستشري في قطاع البناء والنقص في المراقبة وعدم الالتزام بتعليمات السلطات المختصة بشؤون البناء. يتحدث جورج بيغل، أستاذ الهندسة المدنية في جامعة فوبرتال، هنا عن "اليومي في عالم العمل و في قطاع البناء في الدول النامية". إذ يؤدي توسيع رقعة المناطق الحضرية في تركيا وأفغانستان وإيران إلى ارتفاع الطلب على المساكن في مناطق ذات كثافة سكانية عالية أصلاً. ويتم البناء بسرعة وبأقل تكاليف ممكنة لكن غالبًا على حساب أمان وسلامة البناية. أما قواعد البناء فيتم الإلتفاف عليها عبر منح رشاوى للموظفين المعنيين بالمراقبة. لم ينتبه الرأي العام العالمي للتقصير الكبير في سلامة وأمن مساكن المناطق المعرضة للزلازل إلا بعد الهزة القوية التي ضربت تركيا عام ١٩٩٩ مسفرة عن سقوط ٢٤٠٠٠ قتيل وفقدان كثيرين آخرين. لكن عندما يتعلق الأمر بذكر أرقام ملموسة لأرواح الضحايا التي كان من الممكن إنقاذها بوضع تصاميم آمنة للمباني، فإن الخبراء يُبدون حذرًا شديدًا. فمن جهة، غالبا ما تعتمد مباني مقاومة الهزات الارضية التي طورها الخبراء، على تجارب أجريت على نماذج مصغرة. وحتى لو صمدت هذه النماذج أمام الزلازل المحاكاة على ما يسمى «طاولات اختبارات الزلازل»، فإن نتائجها تبقى محدودة للمناطق السكنية المتكاملة. من جهة ثانية، لايريد الخبراء إزعاج سلطات المناطق المنكوبة عبر توجيه الإتهامات القوية لهم، لأنهم مضطرون في النهاية إلى التعاون معهم. يتحدث خبير من إحدى الدول النامية عن إجراءات إضافية تعزيزية لجعل المدارس أكثر أمنا من الزلازل: "اقتصرت على إضافة دعامات أو أعمدة خشبية. لكن هذا لا ينهي المشكلة في رأيي. الإرادة موجودة و ما ينقص هو المال". إلا أن الخبير لم يفصح عن هوية البلد الذي يتكلم عنه. يفضل المهندسون المعماريون والمهندسون المدنيون الإشارة بتحفظ شديد إلى أن بوسعهم ـ وبالمعرفة التي يمتلكون ـ أن يرفعوا من احتمالات بقاء المباني قائمة، أو أن تظل صامدة أمام الزلازل فترة من الزمن حتى يتمكن السكان إبعاد أنفسهم من مكان الخطر. لكن هؤلاء يتجنبون الحديث عن مبان آمنة ولا يتحدثون سوى عن مبان متحملة للزلازل. مع ذلك تظل المقارنة الإفتراضية بين زلزال بم وزلزال طوكيو مقارنة غير مناسبة. لأن إمكانيات الدول الفقيرة في الاستعداد للكوارث أضعف بكثير من إمكانيات عاصمة اليابان الدولة القوية اقتصاديا ومعرفيا. أدرك بعضُ العلماء الألمان هذه المشكلة مبكرا. وأكد المهندس المعماري من مدينة كاسل، جيرنو مينكه عام ١٩٩٤ على أنه: لن يكون من الممكن حل أزمة السكن في الدول النامية، من خلال تغطية النقص الحاصل باستخدام مواد بناء مصنعة مثل الآجر والأسمنت المسلح والصلب وبوسائل الإنجاز الصناعية.

مبان ألمانية تقليدية لمقاومة الزلازل في إيران

يختبر عدد من الجامعات الألمانية حاليا فعالية أنواع مختلفة من البناء منخفض التكاليف، تُستخدم فيه مواد بناء طبيعية لها قدرة على مقاومة الهزات الأرضية. ويعتزم البروفسور بيغل من مدينة فوبرتال بالاشتراك مع فريق من المهندسين المدنيين الشباب من ألمانيا وإيران، بناء مبان تقليدية في إيران تعتمد على الخشب ومواد البناء الطبيعية.

أدركت الحكومة الإيرانية، لاسيما بعد كارثة زلزال «بم» ضرورة بناء مساكن مقاومة للزلازل. وفي هذا الإطار تعرض جامعة فوبرتال بالتعاون مع مكتب هيئة التبادل الأكاديمي الألماني بانتظام دروسا صيفية للطلبة والعلماء الإيرانيين الشباب. يُنتظر من المساكن التقليدية المقاومة

للزلازل المزمع بناؤها في الدول النامية بالخشب ومواد البناء الطبيعية، أن توفر مزيدًا من الوقاية و الأمان عبر التعزيز القطري والوظيفي للجدران الصغيرة. إلا أن بناءها يتطلب دعامات مصنعة. لذا، و في إطار هذا المشروع، سيقام في مدينة أصفهان مصنع لإنتاج هذه الأجزاء. ويقول بيغل "إن إيران تصدر الصلب بكميات ضخمة، لذلك فهي غير مضطر ة إلى اللجوء الى المواد المستوردة عند تصنيع الدعامات الحديدية، بل بإمكانها الاستفادة من مواردها الخاصة". ويؤكد بيغل على ضرورة أن تكون عمليات التصنيع مناسبة للمعايير الألمانية وأن يخضع الخبراء الإيرانيون للتأهيل في ألمانيا. ويضيف: "إننا نحاول، من خلال هذه الطريقة، مواجهة عمليات الفساد والغش في البناء". فكثير من عمال البناء يتم استقدامهم من دول فقيرة كأفغانستان دون أن تكون لهم أي دراية بطبيعة العمل. ومن خلال التصنيع الأولي للأجزاء يمكننا أن نوكل وظيفة تركيبها وجمعها لغير الخبراء ونحن مرتاحون".

ولمعرفته بظروف الفقر في أفغانستان ونقص المواد الصناعية فيه، أخذ المهندس الألماني الشاب، أكبر نصير، على عاتقه مهمة البحث عن مادة بناء منخفضة التكاليف. فطور المهندس الشاب ذو الأصل الأفغاني، فكرة لإنشاء مدرسة تتحمل الزلازل في مدينة هيرات شمال غرب أفغانستان. ويؤكد المهندس، البالغ من العمر ٢٨ عاما، أن مادة الطين المستعملة في البناء صالحة جدا لهذه المناطق ومتوفرة فيها بكثرة، كما أنها مناسبة لاسيما لاستغلال الطاقة بأقصى درجة ممكنة. وعند تصميمه لقاعات المدرسة، راعى نصير الظروف المناخية والجغرافية للبلاد ، وبخاصة شماله المعرض باستمرار لخطر الزلازل، ومن هنا حاجته الماسة إلى مبان آمنة. ويقول نصير : "كان من المهم جدا بالنسبة لي، وبخاصة في بلد مثل أفغانستان الذي عانى سكانه كثيرًا في السنوات الأخيرة، أن أوفر للمواطنين، على الأقل في هذه النقطة، نوعا من الأمان". ويضيف نصير أن: "ما يجعل البناية قادرة على مقاومة الهزات الأرضية، بالدرجة الأولى، هو مايسمى بالدعامة المقوسة التي تجعل البناية غير قابلة للطي و التداخل"، لأن القوى الأفقية التي تنتشر أثناء الزلزال تكون أكثر خطرًا من السرعة العمودية بالنسبة للمباني العالية. لذا لا ينبغي أن تكون المباني المقاومة للزلازل في الدول النامية عالية جدا أو ذات دعامة متحركة. ومع أن مشاريع نصير لم تجد بعد طريقها للإنجاز، إلا أنه يأمل في أن يجد قريبا ممولين ـ يرجح أن يكونوا من منظمات المساعدات الدولية. يعيش سكان العاصمة الإيرانية طهران قلقاً فعلياً من احتمال وقوع زلزال إذ يقول العلماء الجيولوجيون إن هذه المنطقة معرضة كل ١٥٠ عامًا لهزات أرضية عنيفة، كان آخرها قد وقع في العام ١٩٨٠. لذا فإنه من المحتمل أن يضرب المدينة زلزال متأخر. وهو الأمر الذي دفع الحكومة الإيرانية للتفكير في جعل مدينة أصفهان ـ الأقل عرضة للزلازل ـ عاصمة جديدة للبلاد. وقد وظفت طهران أموالا ضخمة على الأقل في إعادة بناء بعض المباني الحكومية والمستشفيات أو في تعزيزها حتى تصير لها قدرة على مقاومة الزلازل. يصف سماسرة العقار المباني التي يعرضونها في إعلانات الصحف بـ «الآمنة من الزلازل». لكن هذه المباني لا يستطيع تسديد ثمنها سوى الطبقة الغنية في العاصمة. أخيرا وليس آخرا فإن تشييد مبان آمنة من الزلازل ليست مسألة مال.

طهران كمركز للزلازل

يعمل المهندس المعماري أمين دافزدا إمامي في جامعة كاسل الألمانية على تطوير تقنية للتدعيم اللاّحق للجدران، وهي تقنية منخفضة التكاليف. تتجلى فكرتها الأساسية في «تضميد» الجدران. وقد كانت هذه الطريقة تتم حتى الآن بمواد صناعية كألياف الكربون. لكن المهندس الشاب البالغ من العمر ٢٩ عاما يدرس الآن إلى أي حد يمكن للألياف الطبيعية كالجوخ والكتان أو الخشخاش أن تلبي هذا الغرض. و تتميز هذه المواد بانخفاض تكاليفها. إذ لا يتعدى سعر الجوخ مثلا ٤٠ سنتا للمتر المربع، بينما يتجاوز سعر ألياف الكربون ٣٠ يورو للمتر المربع. وقد أسفرت التجارب الأولى التي أجريت على نماذج مصغرة نتائج واعدة جدًا. لأن الجدران التي يتم تدعيمها تكون لديها قوة أكبر لمقاومة الهزات الأرضية أكثر من غيرها. ويقول المهندس المولود في إيران إن "علينا أن نتصور الأمر وكأننا نكسو الجدران بالورق. اذ يتم تثبيت الحصيرة المصنوعة من الألياف الطبيعية بلزاق خاص قبل أن يتم طلائها بطبقة ثانية من اللاصق و تسويتها بالجدار. هذه طريقة ليست فقط سهلة بل منخفضة التكاليف أيضا. وهذا مهم لإمامي الذي يقول إنه بالإرشاد يمكن لأي شخص أن يجعل منزله أكثر أمنا من الزلازل. العالم الألماني بيغل بدوره على قناعة تامة بأنه لايمكن التعويل إلا على الحلقة غير القابل إطلاقا للارتشاء في سلسلة البناء، وهي السكان أنفسهم." لأن التعامل مع بعض المجموعات القيادية، المعرضة للارتشاء باستمرار، أصعب بكثير من الحصول على مواد بناء. لكن بيغل لا يشكك في قدرته على الوصول إلى أهدافه حتى عن طريق الرشوة.

ترجمة: عز الدين زرق العين

سحر نادي وموريتز بيربندت: محرران في مجلة Zenith الألمانية المتخصصة بقضايا الشرق.

المصدر: Zenith 3/2006

Martina Sabra مارتينا صبرا

شعور بالمواطنة ، إبداع وإرادة سياسية

إنقاذ حديقة لارميتاج في الدار البيضاء

تفتقر مدينة الدار البيضاء المغربية بشدة إلى مساحات خضراء ومنتزهات تلبي احتياجات سكانها البالغ عددهم حوالي ٤ ملايين نسمة. ويرى خبراء تخطيط المدن أن رقعة المساحات الخضراء التي تتوفر عليها العاصمة الاقتصادية للمغرب حاليا ينبغي مضاعفتها أربع مرات على الأقل لضمان أدنى شروط الحياة الكريمة لسكانها واحترام المعايير الدولية.

هذه الحالة المزرية تتحمل مسؤوليتها بشكل أساسي الإدارة المحلية السيئة ولامبالاة كثير من المواطنين، إضافة إلى تفشي ظاهرة الاستخفاف بقيمة وأهمية الممتلكات العمومية. ويعتبر الإهمال المأساوي الذي تعرضت له حديقة «لارميتاج» (المعروفة أيضا باسم حديقة مردوخ) لسنوات طويلة خير دليل على حالة اللامبالاة بالفضاءات الخضراء والأشجار في مدينة الدار البيضاء، فقد كادت هذه الحديقة التي تعد من أقدم وأجمل المنتزهات الخضراء في الدار البيضاء أن تغرق تحت أكوام القمامة وشبح الزحف الإسمنتي السريع لولا الجهود الحثيثة التي قام بها بعض الغيورين على المدينة في السنوات الأخيرة لإنقاذها وإعادة البريق إلى هذا المنتزه العريق.

تم إنقاذ حديقة «لارميتاج» من الضياع التام بفضل عمل جماعي شارك فيه مواطنون نشطون، ومسؤولون محليون واعون، وفنانون ومثقفون متحمسون، وذلك قبل أن تتدخل (مؤسسة محمد السادس لحماية البيئة) وترعى عملية إعادة تأهيل الحديقة وتجميلها بأموال عمومية وتبرعات خاصة.

مشاهد نساء الحي اللائي تمزحن في ساحة الحديقة، والعشاق الذين يستظلون في حميمية تحت أشجار النخيل والكافور، والتلاميذ الذين يلعبون كرة القدم، أو السياح الذين يلتقطون صورا تذكارية، قد تبدو بديهية لزوار حديقة «لارميتاج» في هذه الأيام، لكن هذه المشاهد كانت حتى وقت قريب شبه مستحيلة، فهذا المنتزه التاريخي المهم الواقع في حي المتر بوشنتوف الشعبي بالدار البيضاء كان يتجنبه المواطنون لسنوات طويلة بعد أن تحول إلى مزبلة كبيرة وملتقى للمجرمين ومدمني المخدرات. وترجع المهندسة المعمارية نادية جبرو، العضو في جمعية «عين السبع La Source du Lion» الفنية التي ساهمت بشكل فعال في إنقاذ حديقة «لارميتاج»، بالذاكرة إلى تلك الفترة قائلة: "لقد كانت «منطقة محظورة No-Go-Area»، خاصة بالنسبة للنساء والفتيات". ولتوثيق ما تقول عرضت علينا جبرو صورا للحديقة تم التقاطها قبل البدء في عملية ترميم وإعادة تأهيل «لارميتاج» عام ٢٠٠٢. وتبدو في هذه الصور ممرات المشاة في الحديقة مليئة بأكوام القمامة في حين تراكم جبل من النفايات على مساحة تعادل رقعة ملعب لكرة القدم. ولتوضيح حجم المأساة أكدت جبرو أنه "تم تحميل أكثر من ٢٠٠٠ شاحنة بالنفايات من الحديقة، ورغم ذلك لا يزال أمامنا عمل كثير كما ترون".

يعود تاريخ حديقة «لارميتاج» إلى عام ١٩١٧ حين صممها المهندس الفرنسي الشهير هنري بروست بهدف جعلها مفخرة لمدينة الدار البيضاء، واختار بروست منطقة تقع جنوب شرق مركز المدينة، حيث بدأ في بناء أحواض وبرك مائية وزرع مئات النباتات والأشجار من أنواع مختلفة. وتشير نادية جبرو إلى أن "الحديقة لا تزال تتوفر إلى الآن على ١٧ نوعا من الأشجار". واشترت بلدية الدار البيضاء هذا المنتزه الترفيهي في عام ١٩٢٧، وبعدها بقليل أصبحت حديقة «لارميتاج»، بمساحتها البالغة آنذاك ١٨ هكتار وباعدادها التي لا تحصى من أنواع النباتات، أكبر وأجمل حديقة في المغرب.

أما الآن فلم يتبقى من المساحة الأصلية للحديقة سوى الربع فقط، وهو الأمر الذي تتحمل مسؤوليته بشكل أساسي بلدية مدينة الدار البيضاء التي سمحت باقتطاع مساحات كبيرة من الحديقة من أجل بناء عقارات، وهكذا تم بناء مدرسة ومركز ثقافي في الأجزاء الجانبية من الحديقة، ثم قررت بلدية المدينة بعدها استغلال الحديقة تجاريا، فمنحت تراخيص ببناء بيوت صغيرة لبيع تذاكر المراجيح الدوارة التي نصبت بدورها في الحديقة، وهي الخطوة التي شكلت حسب رأي الناشط في حقوق الانسان عبد الله زعزاع "بداية ضياع الحديقة". ويوضح زعزاع الذي ساهم كعضو في جمعية حي الميتر بوشنتوف منذ نهاية التسعينيات في إنقاذ حديقة «لارميتاج» قائلا: "لم تعد حديقة لارميتاج تشكل فضاء مترابطا، إذ انقسمت إلى ثلاثة أجزاء كبيرة، فيما تم اقتطاع ما تبقى بشكل تدريجي". فقد قام أحد



الدار البيضاء

Photo: Stefan Weidner

عمال الحديقة مثلا ببناء منزل سكني بطريقة غير شرعية، كما أقدم رئيس قسم محلي للشرطة بتشغيل مقهى عمومي داخل الحديقة دون ترخيص، فيما تحولت أجزاء كبيرة من الحديقة إلى مزبلة، ويرى عبد الله زعزاع أن هذا التطور لم يكن محض صدفة "فالحديقة تقع بين مركز المدينة والمطار، ما يغري ببيع أراضيها بأسعار باهظة. والمضاربون كانوا يأملون أن يتأفف المواطنون من الحالة المزرية التي وصلت اليها الحديقة وأن لا يبدوا بعدها أي معارضة لبناء وحدات سكنية فوق أراضي الحديقة".

يعود الفضل في عدم تفويت أراضي حديقة «لارميتاج» للمستثمرين في القطاع العقاري إلى مبادرة مشتركة لم تشهد مدينة الدار البيضاء مثيلا لها من قبل، فقد أطلق سكان الحي ومسؤولون في بلدية المدينة وأعضاء جمعية (عين السبع) الفنية عام ٢٠٠٢ حملة مشتركة للدفاع عن حديقة «لارميتاج» بعد أن باءت جميع المحاولات السابقة بالفشل. فقد تقدم سكان الأحياء المحيطة بحديقة «لارميتاج» في عام ١٩٩٨ بشكوى أمام بلدية المدينة عبروا فيها عن تخوفهم من المخاطر الصحية المحتملة على السكان بسبب تراكم النفايات في الحديقة. وانضمت جمعيات أخرى إلى السكان، وتم تنظيم تظاهرات صغيرة ووقفات احتجاجية لكن هذه التحركات الشعبية لم تلق أي تجاوب من قبل المسؤولين. وانطلاقا من عام ٢٠٠١ ركز عبد الله زعزاع ورفاقه في جمعية الميتر بوشنتوف جهودهم على توعية الرأي العام بأهمية انقاذ حديقة «لارميتاج». وفي هذا السياق قامت الجمعية بتصوير فيلم وثائقي حول الحديقة. في الوقت نفسه قرر أعضاء جمعية (عين السبع) الفنية دعم هذا المشروع رغم بعض التحفظات في البداية. ويسترجع الفنان حسن ضرسي تلك الفترة قائلا: "لقد أثار انتباهي ذلك الخطاب السياسي اليساري الذي لا اتفق معه وأرى أنه قد تقادم، لكن اعجابي بالمشروع كان يزداد كلما اطلعت أكثر على تفاصيله". وفي عام ٢٠٠٢ بدأت جميعة (عين السبع) تشارك في حملات توعية عبر إرسال نداءات إلى المسؤولين السياسيين وجمع التواقيع وتنظيم أنشطة عمومية. وقد أعطت مشاركة الفنانين دفعة قوية لمشروع إنقاذ حديقة «لارميتاج» واعادة تأهيلها، إذ قام حسن ضرسي وزوجته وزميلته فلورنس رينو ـ ضرسي إلى جانب الفنان رشيد المودن خلال عامي ٢٠٠٢ و ٢٠٠٣ بإنجاز مشروع فني أطلقوا عليه اسم «النموذج» وهو عبارة عن نموذج هندسي ضخم لحديقة «لارميتاج» صُمم على مساحة ١٨ متر مربع ليكون مرجعا هندسيا لمخطط اعادة تأهيل الحديقة وترميمها فيما بعد. وفي أبريل ٢٠٠٣ تم عرض «مشروع النموذج» في «فيللا الفنون» بالدار البيضاء حيث نُظمت جلسات نقاش مفتوحة مع الجمهور والمسؤولين المحليين، وتزامن عرض «مشروع النموذج» مع تعيين محمد الظريف محافظا جديدا لمدينة الدار البيضاء، وقد أبدى الظريف بسرعة استعداده لترميم حديقة «لارميتاج» ووقع على اتفاقية بهذا الشأن تمتد لخمسة أعوام.

لم يقتصر مشروع جمعية (عين السبع) على إخلاء النفايات من حديقة «لارميتاج» وتجهيز أماكن خاصة للاطفال، بل تجاوزها إلى إطلاق أنشطة فنية داخل الحديقة تحت اسم «جسور»، وهي عبارة عن ورشات عمل فنية شارك فيها عموم الجمهور بهدف خلق تواصل بين الحديقة وسكان الأحياء القريبة. وفي عام ٢٠٠٥ نظمت جمعية (عين السبع) شراكة بين حديقة «لارميتاج» بالدار البيضاء وحدائق من شيدام (قرب روتردام) الهولندية وشيكاغو في الولايات المتحدة الأمريكية. وحاولت الجمعية من خلال هذه الأنشطة نشر قيم الانفتاح على العالم وتبادل الخبرات والتواصل والذوق الجمالي وأخيرا وليس آخرا تشجيع المواطنين على

العمل من أجل هدف مشترك، ويوضح حسن ضرسي ذلك بالقول: "أردنا أن نخلق نموذجا يمكن أن يُطبق في فضاءات خضراء أخرى مهملة وفي باقي الاحياء"، وتضيف المهندسة نادية جبرو: "لم نكن نسعى إلى تقديم منتج جاهز وإنما تشجيع السكان على اعتبار الحديقة مشروعهم ودفعهم بالتالي للمشاركة بقوة في عملية إعادة تأهيل الحديقة". وكانت نادية جبرو مكلفة من طرف بلدية الدار البيضاء بتنسيق مشاركة سكان الحي في عملية تجميل الحديقة بين عامي ٢٠٠٤ و ٢٠٠٦، وهي مهمة لم تكن سهلة حسب جبرو، إذ أن: "إقناع السكان بضرورة تنظيم أنفسهم كان صعبا، فالناس لم يتعودوا على أن يصغي لهم الآخرون، ولا يعتقدون أن بامكانهم تغيير أي شيئ بأنفسهم. إن المرء يحتاج بكل بساطة إلى صبر كبير جدا".

كما يدعو حسن ضرسي إلى التحلي بالمزيد من الصبر رغم المصاعب الكبيرة التي لا تزال تواجهها عملية إعادة تأهيل حديقة «لارميتاج»، فبعد مرور خمس سنوات على بدء أعمال الترميم لا تزال هناك عدة كثبان رملية في الحديقة، كما تعاني الحديقة من وجود أسياج سلكية تقطع أوصالها دون أي مبرر، وعند المدخل الرئيسي هناك أرجوحات يعتريها الصدأ، إضافة إلى أن موظفي هذا المنتزه التاريخي لا يحصلون سوى على رواتب هزيلة. ويرى ضرسي أن هذه الأمور كلها غير مقبولة لكنه لا يعتبر أن حل هذه المشاكل من واجبه، ويوضح ذلك قائلا: "إن هدف جمعيتنا الأساسي هو طرح تساؤلات حول المجتمع المغربي وسياسته وثقافته بوسائل فنية، لكن هذا لا يعني أنني فنان سياسي لأن مسألة استقلالية الفن جوهرية بالنسبة لي، فأنا لا أهدف إلى نشر رؤية معينة للعالم وإنما أسعى إلى أن أوضح للناس أن هناك رؤى متعددة ومختلفة لهذا العالم، وأن هناك أشياء أخرى في العالم ربما لم يتعرفوا عليها حتى الآن، وهذا أمر مهم جدا في مدينة كالدار البيضاء التي لا تعير اهتماما كبيرا للفن".

يواصل أعضاء جمعية (عين السبع) العمل على تحقيق طموحهم الفني عبر تنظيم ما يعرف بـ" «الجسور الفنية» كل سنة، ففي صيف عام ٢٠٠٧ تم تنظيم سادس «جسر فني» على التوالي في حديقة «لارميتاج» بعد أن ذاع صيت «الجسور الفنية» في كل أنحاء مدينة الدار البيضاء وحتى خارجها. كما تشرف جميعة (عين السبع) على إقامة دار فنون مستقلة في جنوب مدينة الدار البيضاء.

في غضون ذلك تم ضمان استمرارية الأعمال في مشروع إعادة تأهيل حديقة «لارميتاج» بعد أن وقعت «مؤسسة محمد السادس لحماية البيئة» في شهر مارس ٢٠٠٧ اتفاقية تلتزم فيها بدعم المشروع وتطويره، ويوضح المهندس المعماري ومنسق البرنامج أمين الحلفي ذلك قائلا: "إضافة إلى وظيفتها كمنتزه قريب من المواطنين، ستساهم الحديقة مستقبلا في التوعية بأهمية حماية البيئة، إذ سنجهز برنامجا تربويا وسنبني مركزا للزائرين". وسيتم تمويل المشروع عبر شراكة بين المؤسسات الحكومية والقطاع الخاص، إذ سيقدم برنامج «رؤية الدار البيضاء ٢٠١٠» للتنمية الحضرية وحده دعما ماليا بقيمة ٣ ملايين يورو تقريبا، كما وقعت عدة شركات مغربية وعالمية مثل «ليديك» و «إسمنت المغرب» و «لافارج» على اتفاقيات لدعم المشروع. وتولت شركة Atelier Vert من الدارالبيضاء عملية إعادة التصميم الزراعي للحديقة وتجميلها، فيما أخذ مكتب Trace للهندسة مهمة إعادة تأهيل المباني المتواجدة في الحديقة على عاتقه. ويقول أمين الحلفي بأن مشروع ترميم حديقة «لارميتاج» ليس الأول من نوعه بالنسبة لـ «مؤسسة محمد السادس لحماية البيئة» مشيرا إلى أن: "المؤسسة ساهمت في إعادة تأهيل منتزهات وحدائق هامة في مراكش وفاس وبوقنادل (قرب الرباط)، أما ما يميز مشروع حديقة «لارميتاج» فهو نهج التوعية والتربية على أهمية حماية البيئة".

أما حسن ضرسي العضو في جمعية (عين السبع) الفنية فقد بدأ في إنجاز مشاريع فنية جديدة، وأكد على أنه سيظل مرتبطا بمشروع ترميم حديقة «لارميتاج» بالقول: "سنبقى متواجدين كفنانين في حديقة «لارميتاج» سواء عبر ورشات العمل الفنية أو مدرسة الرسم أو الجسور الفنية السنوية. أعتقد أن مشروعا كهذا لن ينتهي أبدا. لقد كانت حديقة «لارميتاج» نموذجا فقط، وسأكون سعيدا إذا ما تمت الاستفادة من بعض تجاربنا عبر ترميم وتجميل منتزهات كبيرة أخرى في مدينة الدار البيضاء".

تميز عمل جمعية (عين السبع) الفنية بالتقرب من السكان ووضوح البرنامج، "وهي مقاربة قد تكون أدت إلى تأخير الأعمال في بعض الأحيان وعدم إتمامها بالسرعة التي كنا نتمنى، لكن بالمقابل جاءت النتائج جيدة ومبنية على أسس قوية وأتمنى أن تنجح هذه المقاربة أيضا في أعمال الترميم الكبيرة التي ستنطلق مطلع عام ٢٠٠٨". هذه هي الخلاصة التي خرجت بها المهندسة نادية جبرو من تجربة مشروع إعادة تأهيل حديقة «لارميتاج». جبرو أكدت بدورها على أنها ستظل مرتبطة بالسكان المجاورين لحديقة «لارميتاج» رغم انشغالها بمشروع جديد، مشيرة إلى أنها تعمل بشكل تطوعي على إنشاء جمعية نسائية في الحي المحيط بحديقة «لارميتاج».

ترجمة: عادل القدسي

مارتينا صبرا: كاتبة وصحافية ألمانية مهتمة بالقضايا العربية.

Amir Hassan Cheheltan أمير حسن چهل‌تن

تطوير طهران

المشروع غير المكتمل

مع مرور الأيام تغدو المدن الكبيرة على شبه بالأشخاص المشرفين على إدارة شؤونها. على صعيد آخر، يمكن، عموماً، القول بأن الحكومات تشابه المناحي التي تخضع لسيطرتها. وبالنسبة لطهران والمسؤولين عن إدارتها تشكل إحدى هاتين الحقيقتين أحد أركان الموقف غير المنطقي الذي تتسم به طهران: فطهران، على وجه الإجمال، مدينة يسكنها أناس قرويون!

وقبل قرن من الزمن بالضبط، شرع البرلمان، المؤسس حديثاً، قانوناً ينظم إدارة طهران؛ وتأسيساً على هذا القانون صارت طهران تدار بشكل رسمي من قبل رئيس بلدية خاص بها. وخلال هذا القرن من الزمن أوكلت إدارة العاصمة إلى ثمانية وأربعين رئيس بلدية، ونُفِّذ بأحدهم حكم الإعدام، ودخل ثلاثة عشر منهم السجن وأُقيل ثلاثة وعشرون منهم من مناصبهم. ونُسبت إلى هؤلاء جميعاً جريمة تقاضي الرشوة وعدم الكفاءة المهنية.

وفي المائة سنة المنصرمة كانت هذه المدينة المضطربة مَرْجلاً لثورتين عارمتين ومسرحاً لمحاولتين استهدفتا قلب نظام الحكم ومنطلقاً لنفي أربعة من الملوك واثنين من رؤساء الجمهورية إلى خارج البلاد؛ كما كانت هذه المدينة، في الحقبة ذاتها، شاهداً على اغتيال شاه وعدة رؤساء للوزارات وأحد رؤساء الجمهورية؛ أضف إلى هذا وذاك أن المدينة كان قد جرى احتلالها لمرة واحدة من قبل الجنود الأجانب ولمرات عديدة من قبل الجنود المحليين في سياق المائة عام المنصرمة.

بيد أن الأمر الذي يثير الاستغراب هو أن هذه المدينة قد أمست منذ بضعة عقود من الزمن تنمو بنحو انفجاري وأخذت تمد ذراعيها ليس لالتهام كافة القرى المحيطة بها فقط، بل ولتزدرد، أيضاً، مدينتين مجاورتين لها، اسم الأولى منهن راي واسم الثانية شميران. وفي الآونة الأخيرة طفقت طهران تفتح ذراعيها لاحتواء مدن تبعد عنها أكثر من مائة كيلومتر. ومَنْ يدري، ففي وقت ليس بالبعيد، قد لا يبقى من دولة إيران سوى طهران وبادية مترامية الأطراف فقط؛ فهذه المدينة صارت عفريتاً لا تُروى له غُلَّة، صارت عفريتاً نهماً يُجرد باقي البلاد من قوى العمل ورؤوس الأموال، ويستحوذ لنفسه منها على المؤسسات الحكومية وغير الحكومية، وعلى ما شابه ذلك من أمور أخرى لا تعد ولا تحصى.

طهران، مدينة يطوقها العديد من الجزر

منذ عدة عقود من السنين يتدفق على طهران مئات الآلاف من الفقراء على أمل التمتع فيها بمستلزمات العيش الكريم. وتأتي هذه الجموع الغفيرة من القرى النائية والقريبة من طهران أو من المدن الصغيرة التي أخذ سكانها يهجرونها بسبب تفاقم الفقر فيها؛ بيد أن سدود العاصمة الثقافية والاقتصادية تُجبر هذه الجموع، المتدفقة بلا انقطاع، على السكنى في المناطق المحيطة بالمدينة. فهم يستطيعون، في هذه المناطق، تكوين مجتمعاتهم المغلقة الخاصة بهم. وقبل ثلاثة عقود من السنين، أي عشية اندلاع الثورة، كان عدد هذه التجمعات يصل إلى الخمسين. وكانت هذه التجمعات تشكل قوة مضادة بلا قصد ووعي منها.

وفيما كانت الطبقة الوسطى من أبناء المدن تتظاهر في الشوارع مطالبة بالإطاحة بالشاه، متحدية أجهزة الشرطة التي كانت تتقهقر أمام هجومها الكاسح، تعاظمت طاقات جبارة ونشأ فراغ كبير. وكان الفقراء قد استغلوا الفراغ الناشئ فراحوا، تدريجياً وبشعور فطري، يستولون على أراضي البناء المحيطة بالمدينة. وهكذا، صارت مدن صغيرة وكبيرة، لا تعد ولا تحصى، تدور في فلك طهران وتُنسب إليها فجأة! وراحت هذه الجماعات، من ثم، تشق الطرق وتبني المستشفيات وتعمر المساجد وتشيد المكتبات لنفسها؛ لقد نشأت تجمعات سكنية غير مجازة رسمياً وطرائق حياة جديدة لا تأبه كثيراً بالقوانين الدارجة في البلاد. وكانت شعارات الثورة وهتافاتها قد شجعت هذه الجموع وعززت جرأتها وزادت من عنفوان تطلعاتها.

جزر متجولة سلمياً

وكان العديد من هؤلاء الفقراء، أعني الفقراء المستوطنين في المناطق المحيطة بطهران، قد أخلوا أكواخهم لنازحين جدد وذلك لأنهم صاروا يخططون للاستيلاء على الشقق التي هجرها ملاكها. فبحسب ما كتبته الصحف اليومية، كانت توجد في طهران، عشية الثورة، حوالي مائة وخمسون

ألف وحدة سكنية كان ملاكها قد فروا هاربين إلى خارج البلاد أو أنهم تواروا عن الأنظار وسكنوا في مخابئ في داخل البلاد. وكان من بين هذه العقارات قصور وفنادق وفيلات وشقق تم بناؤها وأخرى ما كان المعماريون قد انتهوا من بنائها بعدُ. وبعد أيام قلائل من الإطاحة بالشاه وتأسيس النظام الجديد هدد بعض الفقراء من المستوطنين في المناطق، التي صارت حديثاً تدور في فلك طهران، السلطة الإسلامية، التي جاءت إلى الحكم باسم المستضعفين والفقراء، بأنهم سيستولون على المساكن المهجورة إن لم تدبر لهم السلطة الجديدة السكن المناسب.

وغني عن البيان أنه ما كان بوسع أحد أن يقدم الحل المناسب بناءً على الظروف الثورية التي عمت البلاد. وهكذا، وبعد يومين أو ثلاثة أيام راحت ثلاث آلاف عائلة، كانت الغالبية العظمى منها مسلحة بمختلف الأسلحة الخفيفة، تستولي عنوةً على الشقق المشيدة في حي سكني كان لا يزال في طور الإنشاء. وكانت هذه الجماعات قد وضعت الأبواب ونصبت الشبابيك في هذه الشقق لتأكيد استحواذها عليها بنحو نهائي. وحصلت كل عائلة على غرفة واحدة، تحولت، في الأيام التالية، لا لسكنى العائلة المعنية فقط، بل وأيضاً لسكنى ما جلبت معها هذه العائلة من دجاج، لا بل وحتى ما كان لديها من ماعز وشياه. وفي مرة من المرات كان المسافرون بأحد حافلات المدينة قد شاهدوا، وهم يمرون من أمام هذا الحي السكني، رأس بقرة يطل على الشارع من شباك أحد الطوابق العلوية.

وفي الواقع، فإن الفقراء من سكان المناطق المحيطة بطهران ما كانوا يطبقون هاهنا سوى ما يفهمونه هم أنفسهم من مغزى للثورة الإسلامية. فبحسب فهمهم هذا فإنهم يشكلون الفئة الاجتماعية الأكثر حقوقاً مقارنة بالفئات الاجتماعية المتسلطة. وكان مفهومهم لمغزى الثورة الإسلامية رد فعل، أيضاً، على الخصوصية التي تتميز بها طهران: أعني أخذها بمظاهر الحضارة الحديثة، التي تبدو للمشاهد من خلال ما في المدينة من سيارات وربطات عنق ونساء سافرات وشقق وفيلات فاخرة. وهكذا، لا غرو أن يتأهب هؤلاء جميعاً لمساندة الثوار الذين راحوا يتظاهرون في الشوارع مستخدمين القضبان الحديدية والمواسير المعدنية لتحطيم أسماء الشوارع واستبدالها بأسماء ثورية تعكس الهوية الجديدة للمدينة.

وعلاوة على الأربعة آلاف وخمسمائة فيلا، التي استولى عليها الفقراء في الشهر الأول من عمر الثورة، اقتحم الطلبة العديد من فنادق الدرجة الأولى. وهكذا، فإذا كانت حملة الشاه للقضاء على الأمية، قد عبدت، في إطار "جيش المعرفة"، الطريق لشبيبة القرى والأرياف لأن تدخل جامعات العاصمة، فإن هذه الحملة قد جرى استكمالها الآن وذلك بأن استولت هذه الشبيبة على تلك الفنادق أيضاً التي كانت مخصصة من قبل للأجانب أو للطلائع المهيمنة على البلاد.

ففي العام الجامعي الثاني من عمر الجمهورية الإسلامية استولى ألف طالب على فندقين من فنادق الدرجة الأولى يقعان في أحدث وأرقى شارع في العاصمة. وبرر هؤلاء الطلبة صنيعهم هذا بحجة بينة لا مجال لمناقشتها: لقد عجزت الحكومة عن توفير مساكن طلابية مناسبة لنا.

وتبنت جموع أخرى من الطلبة الجامعيين هذه الإستراتيجية، فاستولت، هي أيضاً، على فنادق أخرى. لقد سقطت طهران في أيدي ائتلاف عجيب مكون من جنود الثورة الإسلامية وشبيبة شيوعية متطرفة العقيدة وباعة متجولين وأناس عاطلين عن العمل ورعاع وفقراء يسكنون المناطق المحيطة بالمدينة. وفيما بدا الشغف بالتشفي وأخذ الثأر كما لو كان مشعلاً ينير الدرب للبعض ويفزع المدينة برمتها، ارتمى بعض رجال الدين في أحضان هذه الحركة وراحوا يساهمون فيها وذلك بغية كسب ود الجماهير الواسعة وبهدف إضعاف الحكومة الثورية المؤقتة، التي كان العديد من أعضائها من الإسلاميين العصريين.

وسرعان ما نال هذا النهج الاستحسان والتأييد؛ من هنا، لا غرو أن يؤسس أحد رجال الدين لجنة اسمها: «مساكن للمستضعفين». وكانت طريقة العمل واضحة بينة ثابتة المعالم: فبعد أن تعثر إحدى المجموعات العاملة على الفنادق والبيوت وأراضي البناء المناسبة، تُجيز الدوائر الرسمية حق التصرف بهذه العقارات؛ ولا يحتاج الأمر، من ثم، لأكثر من الاستيلاء على هذه العقارات. وهكذا، فلا تمضي ساعة أو ما يقرب من الساعة، سرعان ما يتجمع رجال ونساء وأطفال حاملين، كل بحسب عمره ومنزلته في الأسرة، أمتعتهم تحت أبطهم وعلى أكتافهم أو على ظهورهم: حزم الملابس، وأسِرَّة النوم وفُرُشها، وأواني الطبخ ومواقد تجهيز الشاي (السامور)، وأقفاص الطيور والدجاج، والمكانس والسطول، وصفائح البنزين وقناني الغاز، والكراسي ومهود الأطفال... وكان يتوسط هذه الجموع، دائماً وأبداً، مجموعة من طلبة الجامعات الريفيين، معلنين على الملأ فرحتهم بالهوان الذي لحق بالأغنياء، ومعربين عن غبطتهم وشعورهم بالفخر وهم يوزعون الغنائم على الذين شاركوا بالاستيلاء على العقارات. وكان السكان المتحصرون يطلون من نوافذ مساكنهم للتعرف على الجيران الجدد، الذين استشعروا، فعلاً، بأنهم قد صاروا أكفاء للساكنين القدماء، وتبرأوا، بكل إصرار، من ماضيهم. وإذا كانت كل الدلائل قد أشارت إلى أن هذه الجماعات لا مستقبل لها في مناطق

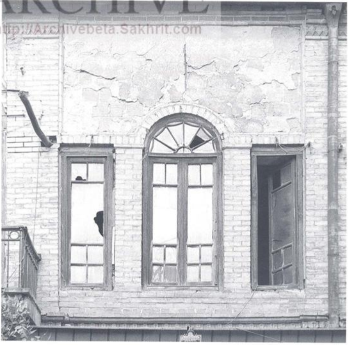
سكنها الجديدة، إلا أن هذه الحقيقة كانت قد غابت عن وعيهم بالكامل.

وكان الطلبة، ومعهم ناشطون معروفون بعقيدتهم اليسارية، قد تكفلوا بالنهوض بالواجبات المختلفة. ولإحباط كل ما قد يقوم به الملاك القدماء من محاولات لاسترجاع حقوقهم المسلوبة، كون الطلبة وحدات حراسة واجبها الدفاع عما حققوا من مكاسب. كما نظموا دروساً للقضاء على الأمية وأنشئوا ورش عمل لتعليم الفقراء بعض الأعمال الحرفية.

وكانت ثورة الحصول على مكان للسكنى قد اتسع مداها وتعاظم تيارها، فلم يعر المرء اهتماماً يُذكر لحقوق الملكية. وهكذا غدت طهران تواجه، الآن، محنة أخلاقية. فالمسئولون الحكوميون قرروا - بإستراتيجيات مختلفة - وضع حد للتعدي على أملاك الآخرين. في بادئ الأمر وبخوا الجماعات التي استولت على عقارات الآخرين عنوة وطالبوها بإعادة العقارات إلى أصحابها الشرعيين. ولم يتوان واحد أو اثنان من آيات الله حتى عن إصدار فتوى دينية تحرم، شرعاً، الاستيلاء على عقارات الآخرين. وغاب، على ما يبدو، عن وعي أصحاب هذه الفتوى أن الشعارات والنداءات الثورية لم تشجع الفقراء على الاستيلاء على أبواب وجدران هذا المنزل أو ذاك وهذه الشقة أو تلك، بل كانت قد وعدت هذه الجماعات بان البلد كله قد صار يخضع لسلطانها ويأتمر بأمرها! ولنزع العقارات من أيدي الفئات التي استولت عليها عنوة ولرفع الموانع المتناثرة في الشوارع والطرقات الموصلة إلى هذه العقارات، أرسلت الحكومة جرافات تحميها أجهزة الشرطة. بيد أن المحتلين للعقارات ما كانوا مستعدين، أبداً، لأن يتخلوا عن العقارات التي كانوا قد احتلوها في الأيام الخوالي. وكانت بعض الحالات قد انتهت بمناوشات وردود فعل لم تمتنع حتى عن استخدام العنف. وكان المحتلون هم المنتصرون في أغلب هذه المناوشات والمعارك. إن المدينة التي كانت تفتخر بعظمة رفاهيتها وترفل بفيض نعمها، كشفت الآن عن وجهها الآخر وسجيتها الخفية عن الأنظار.

وكان طلبة الجامعات أول الأطراف التي أعلنت استسلامها. فمع احتلال السفارة الأمريكية في تشرين ثاني/نوفمبر من عام ١٩٧٩ تصاعدت عملية الانسحاب من الفنادق التي كانت قد تحولت إلى بيوت لسكنى الطلبة. فقد اتضح الآن أن احتلال سفارة، وسفارة أمريكية على وجه الخصوص، أكثر إثارة وأعم استحساناً من احتلال فندق من فنادق الدرجة الأولى!

وبعدما دبر العاطلون عن العمل السكن المناسب لأنفسهم، صار همهم الأول يتركز، الآن، على الحصول على فرصة عمل مناسبة. ولأنه ما كانت هناك أية فرصة لتشغيل هذا العدد الهائل من العاطلين عن العمل، لذا لجأ الفقراء من سكان المناطق المهمشة، ومعهم كل العاطلين عن العمل وكل مَنْ ليس له سكن يؤويه، إلى الشوارع والطرقات وذلك بغية الحصول هاهنا على القوت الذي يسد الرمق؛ وفجأة تحولت أرصفة شوارع طهران وطرقاتها إلى دكاكين تعج بالألوان والحركة: مخابز، محلات جزارة، ودكاكين لبيع صغائر الأمور وورش لتصليح كل ما يخطر على البال من أدوات ومعدات! وكانت هذه الأوضاع الجديدة قد قدمت نفعاً عظيماً لتلك الجماعات الفقيرة على وجه الخصوص، التي كانت قد استوطنت الآن أحياء الأغنياء الواقعة في شمال طهران: فهذه الجماعات لم تعد بحاجة للتسوق في الأسواق الحديثة والمتاجر



نوافذ، طهران
Photo: Rana Javadi

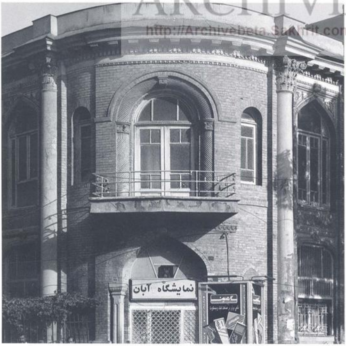
الراقية؛ وهكذا تكونت في المدينة أحياء مغلقة تبدو كما لو كانت جزراً لها تقاليدها وأعرافها، وهواياتها وطرائق حياتها، وميولها وعداواتها الخاصة بها. فسكان هذه الأحياء خلقوا لأنفسهم مجالاً حيوياً يلبي رغباتهم ويتسق مع حاجاتهم. أضف إلى هذا وذاك، أن هذه الجماعات كانت تسعى جاهدة لتحويل الفقر إلى قوة معنوية عظيمة التأثير.

وكان جزء من هذا الجيش الجرار قد استولى على أرصفة الشوارع والطرقات ليتخذ منها وسيلة تدر عليه دخلاً بلا عناء كبير؛ فقد أمسى القوم يقدمون الخدمات للمارة ويساعدون أصحاب السيارات على رَكْن سياراتهم لقاء بقشيش معين. وكانت الغالبية العظمى منهم على ثقة تامة بأن خلع الشاه قد عبد أمامهم الطريق للتقدم والتطور وأنهم قد صاروا الآن يكونون فصيلا مهما من فصائل الحياة الثقافية في المدينة. وبهذا النحو، كان قيام هؤلاء المستوطنين غير الشرعيين، بالتغلغل سلمياً وبلا انقطاع في حياة المدينة، قد بلغ هدفه وحقق مرامه.

ومع وصول الباعة المتجولين ازداد في طهران اتساع المجال الحيوي غير المجاز رسمياً. فهذه الفئة الاجتماعية يغلب عليها المرح وتتسم بانشراح الصدر، أضف إلى هذا أنها كانت تهتم بالحياة الدنيا ولا تستسيغ التجهم والأجواء المحزنة التي أوصى بها رجال الدين وأمر بها القائمون على دفة الحكم. فبما كانت تذيع على الناس من نكات وطرف، وبمطاعمها الصغيرة المتنقلة، وبالشاي والدوندرمة وبشوربة الخضار التي تقدمها بأرخص الأثمان، وبموسيقاها وغبطتها الطبيعية، نعم بهذا كله كانت هذه الفئة الاجتماعية الفقيرة تتصرف، عموماً، بنحو يناوئ الشمولية التي أمر بها أصحاب السلطان ويخالف توصيات أعداء التعددية. فهذه الحياة المتعددة الجوانب الزاهية بالألوان، هذه الحياة الغريبة عن حياة المدن والتي هي انعكاس للحرية السائدة في القرى والدارجة بين البدو الذين يسكنون الخيام، نعم إن أسلوب حياة هذه الأقلية ونمطها الثقافي لم يتقبلا توصيات رجال الدين التعسفية. لا سيما أن النظام كان قد أدان البهجة والسرور وأكد على أن الحزن والبكاء مفتاح الرحمة والنجاة.

وعملياً لم تكن هناك إمكانية لأن تندلع مجابهة مباشرة بين المحيطين الثقافيين، وأنّى لهذه المجابهة أن تندلع، فمجابهة من هذا القبيل كانت تتعارض تعارضاً مبدئياً مع الشعارات التي بررت شرعية استيلاء القادة الجدد على سدة الحكم، وتتنافى تنافياً تاماً مع المبادئ التي نادت بها الاجتماعات والندوات السياسية. من هنا، فقد فضل الماسكون بالسلطة الاستعانة بالبطلجية، أي بذلك الجزء من جيش العاطلين عن العمل، الذي وضع نفسه في خدمة المهيمنين على السلطة حديثاً. وكان هذا الصنيع بمثابة البداية التي انطلق منها القمع المنظم الذي مارسته السلطة ضد مواطني طهران الأصليين. ولكن، ولأن البطلجية لم يحققوا نصراً بيناً ونهائياً في سياق هذه المجابهات، لذا ما كان للحكام بد من أن يفتحوا في مختلف أنحاء طهران العديد من الأسواق الصغيرة وذلك لتمكين الغالبية العظمى من التجار المتجولين من الحصول على مكان عمل مستقر.

ولكي لا تبقى زمر البطلجية، المكونة حديثاً، بلا عمل ومن غير مهمة، لذا ارتأى أولو الشأن تكليف هذه الزمر بمهام جديدة: في البداية، كلفوهم بملاحقة كافة المجموعات المعارضة وإجبارها على التواري عن الساحة السياسية؛ ومن



نوافذ، طهران
Photo: Rana Javadi

ثم، أوكلوا إليهم إرهاب ومعاقبة الفتيات والنساء اللواتي يظهرن في الشوارع والأماكن العامة بملابس لا تنسجم مع القواعد التي سنتها الجمهورية الإسلامية. وكما هو معروف، فإن هذه المهمة لم تصل إلى نهايتها حتى بعد مضي ثلاثين عاماً على تأسيس الحكم الإسلامي في إيران.

وفي تلك الحقبة من الزمن، أمسى، فجأة، كون السيدة تنتمي إلى فصيلة النساء موضوعاً ينطوي على قوة تفجيرية. وفي الواقع، فإن هذا الموضوع لم يفقد شيئاً من قوته التفجيرية حتى اليوم الحاضر. وكانت القوانين، التي شرعها الحكام الجدد، تتناقض تناقضاً تاماً مع القوانين التي كان معمولاً بها في زمن النظام القديم؛ وهكذا، سرعان ما اكتشفت النساء أنهن صرن هدفاً للتمييز وعرضة للإجحاف. وكانت الأعمال التعسفية ضد المرأة قد بدأت حين رفع النظام شعار: "إما حجاب الرأس أو قطع الرأس". وكانت هذه الأعمال التعسفية قد ازدادت عنفاً في سياق الصمت الذي هيمن على البلاد على خلفية الحرب مع العراق؛ فهذه الحرب كانت الحجة التي سوغ بها الحكام تكميم الأفواه. ومهما كانت الحال، فالأمر البين هو أن الحجاب الإسلامي قد غير مظهر المدينة بالكامل. وكان أولو السلطان الجدد لا يكلون عن الزعم بأن الحجاب أمر تأمر به الشريعة وأن عدم التمسك به يثير الشهوات الشيطانية لدى الرجال. وتمشياً مع هذا الموقف أوكل الحكام الجدد إلى نساء ينتمين إلى فئات تقع في أدنى السلم الاجتماعي مهمة إجبار كافة النساء على التقيد بارتداء الحجاب. وغني عن البيان أن هذه المهمة قد أتاحت للنساء المكلفات بالأمر العمل في حقل يمن عليهن بسلطة وثقة بالنفس ما كن يحلمن بها من قبل. فهذه مهنة جديدة لم تكن لها سابقة في إيران: فهن يقفن على مداخل الدوائر الحكومية أو أبواب المحلات العامة ليتشممن ما إذا كانت إحدى النساء الداخلات قد تعطرت بعطر يثير الشهوات الشيطانية لدى الرجال!

وإذا كانت أسعارُ الصرف المختلفة وحقُ كافة المواطنين في الحصول على نسبة محددة من العملات بسعر الصرف الحكومي من جملة الأمور التي خلقت لنسبة كبيرة من العاطلين عن العمل فرصاً جيدة لكسب الرزق، فإن الأمر البين هو أن بدء الحرب الإيرانية-العراقية وما تلاها من تقنين لتوزيع المواد الغذائية، قد أتاح للعاطلين عن العمل التمتع بفرصة التشغيل الكامل. ففي هذه الحقبة من الزمن ما كانت في المدينة، لا في شوارعها ولا في أماكنها العامة، رقعة تخلوا من باعة قسيمة المواد الغذائية والمتاجرين بهذه القسيمة. بيد أن جزءاً من هؤلاء السماسرة كان قد ذهب إلى الجبهة وذلك للمشاركة بأهم الواجبات الاجتماعية قدسية. فحكومات ذلك الزمن رأت في هذه الحرب مبرراً يجيز لها، في ذات الوقت، إخضاع المدينة برمتها إلى نداء إلهي يبشر بالنصر: إلى نداء يفرض على الجميع التزام الصمت المطبق في أزمنة الحرب!

وبعد عقد أو عقدين من الزمن ما عادت سوق المتاجرة بقسيمة المواد الغذائية تدر الربح الوفير. فقد كانت الحكومة قد تحولت صوب سعر صرف موحد وألغت حصص الصرف الأجنبي المتاحة للمواطنين المسافرين إلى خارج البلاد ونفذت بضعة إصلاحات اقتصادية أخرى. وسرعان ما تحول الأفراد صوب سوق عمل جديدة اتخذت أبعاداً ربما لا يوجد مثيل لها في أي بلد آخر من بلدان العالم: شبكة المتاجرة بالمخدرات! فبحسب الإحصائيات الرسمية، فإن عدد المدمنين على تناول المخدرات بلغ، على مستوى البلد ككل، قرابة خمسة ملايين؛ علماً بأن الجزء الأعظم منهم هم من سكان طهران.

وعلى خلفية الثروات العظيمة والدخول الكبيرة المتحققة في هذه السوق المريبة، غدت طهران محاطة بأحياء سكنية يتزايد عددها من يوم لآخر بلا إجازة رسمية. ولكي تنتفع أحياؤهم السكنية بالبنى التحتية السائدة في المدينة راح سكان هذه الأحياء يفاوضون الدوائر المسؤولة عن إدارة المدينة على ضرورة ربط أحيائهم بشبكة البنى التحتية الخاصة بطهران. وما أن استجاب المسؤولون لهذه المطالب، سرعان ما تصاعدت، من جديد، عملية بناء الأحياء غير المجازة رسمياً. ومن حيث المبدأ يمكن القول بأن توسع رقعة طهران قد تم بحسب الصيغة التالية: هجرة قسم من المواطنين إلى المدينة، إنشاء أحياء سكنية غير مصرح بها رسمياً، ربط هذه الأحياء بالمدينة التي صارت تتوسع توسع بقعة الزيت المسكوب على الأرض، إنشاء أحياء سكنية جديدة بلا تصريح رسمي.

وبما أن الإدارة المحلية في طهران قد زادت مدى المدينة، رسمياً، من ٢٢٥ كيلومتراً إلى ٥٢٠ كيلومتراً، أي إلى ٢,٣ أضعاف المدى السابق، لذا صار، رسمياً، من حق العديد من البلديات المجاورة التمتع بالخدمات المتعارف عليها في المدينة. ويكمن السبب الذي حبذ لحكام مدينة طهران تشجيع عملية التكامل هذه في التطلع لتعزيز الأرضية السياسية التي يقفون عليها. وكان هذا الإجراء، في الواقع، بمثابة رشوة أُريد منها تحويل جموع القاطنين في المناطق المجاورة والمحيطة بطهران من سكان متذمرين، متبرمين إلى مواطنين مطيعين، قنوعين. بيد أن هذه اللعبة المتعاقبة لن تبلغ النهاية أبداً؛ فالانتصارات والمكاسب التي يحققها سكان الأحياء المحيطة بطهران، تنعم على العاصمة بسكان جدد مصيرهم السكنى على هامش المدينة.

وحينما نجح أحمدي نجاد، بعد خمسة وعشرين سنة، في الانتخابات بفضل شعاره المتكفل "بتوزيع العوائد النفطية

على الجميع"، أصيب المثقفون الإيرانيون بالدهشة فعلاً من هذا النجاح. وفي الواقع، ما كان لهم أن يستغربوا من هذا النجاح، لو كانوا على علم أكيد بالفئات التي يتكون منها سكان مدينتهم العاصمة. ومهما كانت الحال، الأمر البين هو أن الثورة الإسلامية قد وفرت للفقراء من سكان الأحياء الهامشية، الذين قضوا عشرات السنين في كنف وجود مهمش، لأول مرة إستراتيجيات جديدة كفيلة بكسبهم مستلزمات الحياة. وكانت هذه الإستراتيجيات قد غيرت، بنحو جذري، الطرائق التي يكسب بها سكان الأحياء المهمشة قوتهم اليومي. فعلى ما يبدو، توطدت إقامة هذه الجموع في طهران واستقرت، فصاروا جزءاً من سكان المدينة. وتشير أغلب الدلائل إلى أن هذه الجموع لن يكون في الإمكان إزاحتها عن حياة طهران الاجتماعية في الأمد الطويل. ومَنْ يدري؟ فربما تمنحهم القوانين الجديدة - أعني القوانين التي شُرعت مؤخراً لتقنين استهلاك الطاقة - قاعدة لنشاطات اقتصادية جديدة!

طهران، بطاقة بريد خيالية

لطهران قدرة عجيبة على إيهام شعرائها وأدبائها وفنانيها. ففي هذه المدينة يستطيع المرء أن يتحرر من الحقيقة الماثلة ويتجرد من الواقع القائم. ولعل من نافلة القول التأكيد هنا على أن هذا التحرر وذاك التجرد أمر لا يعرف قيمته سوى أولئك الذين ينهضون بالأعمال الإبداعية، ويمارسون الإنتاج الخلاق.

ففي رواياتي المبكرة كنتُ قد وصفت مدينة لم يعد لها وجود بالصيغة التي رسمتها لها، لا بل ربما كنت قد وصفت مدينة ما كان لها وجود أصلاً. فهذا الحنين للماضي، وهو حنين مستعار، ينَسِبُ للمدينة - خاصة بعد أن يستغرق في الأخيلة، ويستسلم للأحلام، ويكون مثقلاً بالنُّعاس - قوة جذب ضائعة وذلك لكي ينعم علينا، - نحن أبناءَ طهران - بماضٍ عريق، تليد. وكنتُ قد استقصيت جوهر هذه المدينة انطلاقاً من مناحٍ مرئية وغير مرئية: من خليط جمع بين صور فوتوغرافية مختلفة وذكريات ماض سحيق، خليط ضم مؤلفات وألحان طواها النسيان فلم يعد المرء يتذكرها إلا وهو يتأرجح بين الحلم واليقظة، خليط من روائح وأصوات لا تعيها الذاكرة إلا بعد استنشاق عبقها والإصغاء إلى رنينها مرات ومرات. إن هذا الخليط هو المادة التي تخلق الحنين إلى ماضي طهران السحيق، الحنين إلى المدينة التي لا يتفق وجودها الحقيقي مع رنين اسمها في ذاكرة بني البشر، الحنين إلى المدينة التي تتصف خاصيتها الرئيسية بالاضطراب والهوس، والحيرة والارتباك.

وأنا أعترف طواعية بأني استعرت جزءاً من مناحي الحنين هذه من التصورات التي يكنها الأجانب: تصوراتهم عن مدينة من مدن ألف ليلة وليلة تطوي جناحيها على أزقة تطيب لها النفس وترفل بظلها الروح، أزقة لا يسمع المرء فيها إلا همهمة المزاريب حين يشجيها انهمار المطر، مدينة تحفل بمساجد ذات زوايا غامضة ومآذن ذات طراز تركي، مدينة تعج بأسواق يضيئوها نور القبب ويتجول بها باعة محتالون، مدينة تَتَنَسَّم برائحة التوابل وتتوهج ببريق الحرير! وإن نَسيتُ فلن أنسى أبداً: نَسّاج السجاد وأباريق الأصباغ الكبيرة، والنسوة ذوات العيون السوداء، وزرقة السماء وعطر الأرض، والهدوء والترقب اللذين يخيمان على الأجواء بعدما يتعالى، فجأة، صوت المؤذن.

طهران الحقيقية!

إن الحياة اليومية المعاشة على أرض الواقع تشهد على أن هذه الأحلام ليست سوى أوهام حجبت عن المرء النظرة الثاقبة للواقع الموجود فعلاً. فبعدما تذهب هذه الأوهام مع الريح، لا يرى المرء سوى مدينة مضطربة الهندسة ومتغيرة الحواف، ومساحات شاسعة وزوايا مدببة لا قاعدة تنظمها، ولا عين تراها على حقيقتها، وذلك لأنها توارت عن الأنظار خلف تلوث بيئي عظيم وضباب كثيف. وطهران، باعتبارها مشروعاً لإنشاء مدينة، لن تبلغ النهاية أبداً، فهي تنفق جل طاقتها الحياتية لتحويل أناس قرويين إلى سكان مدينة عامرة، بالرغم من أن هؤلاء الناس لا يبدون أي موهبة تؤهلهم لبلوغ هذا التحول.

وبالرغم من كل ما قلناه أعلاه، تظل طهران المكان الوحيد في العالم القادر على خلب لبي وأسر فؤادي بانطباعات غير عادية، انطباعات وحشية، زاهية الألوان وفجائية الحدوث! وكنتُ، في أحدث رواياتي، قد استحضرت طهران هذه، المدينة التي لا نهر لها، والتي أمسى اسمها يرتبط بالعطر الفواح والموت الزؤام، المدينة المثيرة للرعب والفزع، والحانية على مغامرين لا يقر لهم قرار، مغامرين يشبهون ظلالاً وهمية عابرة، نعم لقد استحضرتُ في أحدث رواياتي هذه المدينة التي تأوي أناساً ديدنهم الكذب وزادهم النفاق حتى وهم يعانون عذاب جهنم. فهاهنا ينظر أحد سكان طهران إلى العالم من خلال خليط صاغ أعماق أعماق نظرته للحياة.

لقد رسمت، في أحدث رواياتي، أعني روايتي الموسومة "أخلاق سكان شارع الثورة"، صورة لطهران هذه، لقد رسمت صورتها بالشعور المرهف الذي يتميز به إنسان يتحدث عن جسمه المثخن بالجراح وفؤاده الدامي.

ترجمة: عدنان عباس علي

أمير حسن چهل‌تن: روائي إيراني يقيم في طهران ويعتبر أحد أشهر الكتاب في إيران المعاصرة.

Naresh Fernandes نارش فيرنانديس

ازدهار أم لعنة؟

التحولات الجديدة في بومباي

قبل أشهر قليلة، كان يبدو مستحيلا أن تفتح التلفزيون على قناة هندية ناطقة بالإنجليزية دون أن تتعثر في الممثل الأشهر في شبه القارة وهو يدلي باعتراف مروع، مفاده أن الفوائد العائدة من الطفرة الهائلة في النمو الاقتصادي، لم ينتفع بها أكثر الناس فقرا في الهند. "في هذا البلد هناك هندان"، هذا ما أعلنه أميتاب باتشان ضمن حملة دعائية أطلقتها جريدة The Times of India ـ أكبر الصحف الناطقة بالإنجليزية في الهند بمناسبة الاحتفال بعيد الاستقلال.

ولا بد أن اعتراف الجريدة التي نصبت نفسها بوقا لأصحاب الأموال الجدد في الهند، قد أدخل شيئا من الطمأنينة إلى قلوب المتشككين في السياسات الاقتصادية النيوليبرالية في البلاد، ونبه إلى أنه بالرغم من النمو الاقتصادي الذي فاق تسعة في المئة، فإن ٣٥ بالمائة من السكان يعيشون الحرمان المطلق. وينفقون، حسب تقديرات الأمم المتحدة، أقل من دولار واحد في اليوم. ولن تجد مكانا توجد به دلائل أكثر على تبعات هذه السياسات مثل بومباي، فقد كانت دائما البارومتر لحالة الأمة. وبالرغم أن المدينة تأوي خمسة عشر ملياردير من أصحاب المليارات الهنود الستة والثلاثين الموجودين على قائمة فوربس، فقد أكتشف عاملون في المجال الطبي في يوليو أن طفلين من الذين يعيشون على حافة مدينة السينما Film City التي تشهد صناعة أفلام بوليوود يعانيان من سوء حاد في التغذية. وكان ذلك آخر مثال تم رصده من أمثلة عديدة مشابهة من حالات سوء التغذية في مومباي في الأشهر الأخيرة. فساد السوق الحرة مرئي للجميع. بلغت سوق الأسهم أعلى نقطة لها في يوليو، لكن أكثر من ٥٥ بالمائة من سكان بومباي البالغ عددهم خمسة عشر مليونا يعيشون في المناطق العشوائية. مع ذلك فإن محرر إعلان صحيفة التايمز الهندية، كانت له رؤية جديدة للأزمة: لقد لام الفقراء لمنعهم الهند من تحقيق ما تستطيع تحقيقه فعليا. ففي الإعلان يكمل باتشان قائلا: "إحدى الهندين تمسك بالمقود وتتلهف إلى التقدم للأمام ولأن نكون جديرين بكل السمات التي يغمرنا العالم بها في الآونة الأخيرة. الهند الأخرى هي المقود". كلمات باتشان الطنانة صيغت بحرص وعناية من أجل تخليص أغنياء الأمة الجدد (وكذلك القدامى) من المسؤولية التي ربما يشعرون بها تجاه أهل بلدهم الأقل ثروة. وبالرغم من أن هذه الدعاية الطويلة على نحو غير معتاد (طولها دقيقتان وثلاث عشرة ثانية) لم تعد تبث، فإن الآلاف لا يزالون يشاهدونها على الإنترنت. وقد زاد موقع تصوير هذا الإعلان من عبثية وجهة النظر التي يروج لها. لقد اختار منتجو الفيلم أن ينطق باتشان بالنص الإعلاني أثناء سيره فوق جزء من جسر في وسط بومباي يبلغ طوله ٥,٦ كيلومتر بين حيي باندرا وورلي. في حوار أجرته معه صحيفة Economic Times وهي الصحيفة الشقيقة The Times of India، أبدى مؤلف النص الإعلاني ملاحظة بأن هذا الجسر المعروف باسم باندرا ـ ورلي سي لينك، "هو استعارة جيدة لوضع الهند في يومنا هذا". وهكذا يكون قد تحدث بأقصى صراحة ممكنة.

يعتقد مؤيدو المشروع أن الجسر سيحول مومباي بطريقة سحرية إلى مدينة ذات مستوى عالمي من خلال تقصير المسافة بين الضواحي السكنية وأحياء العمل الجنوبية. لقد اختاروا أن يتجاهلوا الأمثلة المتاحة فعليا لمدن أخرى ذات مستوى عالمي مثل نيويورك أو لندن أو باريس، والتي صاحب بزوغ شهرتها استثمار ضخم في شبكات المواصلات العامة. وحتى في يومنا هذا، في الوقت الذي تفرض فيه المدن الغربية رسوما على السيارات التي تدخل إلى مناطق وسط المدينة لتجنب الزحام، على أساس أن السيارات هي المشكلة وليست الحل لعمل المدن الكبرى بكفاءة أكبر، فإن جل النفقات في مجال النقل والمواصلات في مومباي يشجع السيارات الخاصة. في السنوات الأخيرة تم بناء ٣٧ جسرا علويا ويتم التخطيط لبناء ثلاثة عشر جسرا آخرين، مع تجاهل حقيقة أن ٨ بالمائة فقط من السكان يذهبون إلى عملهم بالسيارات. الغالبية العظمى من الذين يسافرون يوميا إلى أعمالهم ـ ما يقرب من ستة ملايين شخص- يستخدمون القطار. خمسة آلاف مسافر يُحشرون في قطارات تسع ألف وثمانمائة فقط. إنها كثافة تصفها هيئة السكك الحديدية الهندية بأنها "الحمولة الفائقة للحشر المكثف".

ولا يرمز جسر «سي لينك» فقط لتميز النخبة فقط وإنما أيضا للفوضى والاستبداد المتضمنين في نموذج التنمية الهندي الحديث. بدأ العمل في إنشاء الجسر عام ١٩٩٩، لكنه الآن تخطى الموعد النهائي لتسليمه وتخطى الميزانية المخصصة له. في يوليو الماضي هددت شركة الإنشاءات المسؤولة عن بناء الجسر بوقف العمل حتى تُدفع مستحقاتها. بلغت تكلفة جسر «سي لينك» حاليا ثلاثة عشر مليار روبية أي أكثر من ثلاثة أضعاف التكلفة المقدرة له. تم إهدار أربعة مليارات روبية في تعديل إنشاء مئة وخمسين مترا من الجسر، بعد أن لفت صيادون الانتباه بأنه لن يتاح لهم الوصول إلى البحر بسبب الجسر. على ما يبدو أن أحدا لم يفكر في استشارتهم أثناء تصميم المشروع.

كذلك رُفضت اعتراضات أنصار حماية البيئة الذين أشاروا إلى أن جسر «سي لينك» سيضيق مصب نهر ميثي وهو قناة حيوية لتصريف المياه في مومباي خلال فترة الأمطار الموسمية. وعادت تحذيراتهم إلى الأذهان عندما قُتل أكثر من ٤٠٠ شخص في السادس والعشرين من يوليو عام ٢٠٠٥ بفعل الفيضانات الجارفة التي كان من الممكن تداركها جزئيا من خلال تصريف أفضل. ونهر ميثي مثله مثل جسر سي لينك، هو رمز لعمليات التطوير في الاتجاه الخاطئ التي شهدتها المدينة في العقد الماضي. علت أصوات كثير من المنتمين للطبقة الوسطى زاعمة أن القناة النهرية قد ضاقت بسبب العشوائيات التي انتشرت على ضفتيها. وفي الواقع، فإن أعمال الإصلاحات التي أجريت بموافقة حكومية هي التي قلصت من قدرة مصب الميثي على استيعاب مياه الأمطار الموسمية، كما أن توسيع مدرج الهبوط والإقلاع بمطار المدينة غير مسار النهر بمقدار ٩٠ درجة تقريبا. وأدى إنشاء حي الأعمال باندرا كورلا الفائق الحداثة إلى تضييق مسار النهر أكثر، وبالطبع لم يساعد تشييد جسر سي لينك في تحسين الوضع.

لو واجه سكان مدن أخرى الكوارث الناجمة عن ذاك الفيضان، لاحتشدوا في الشوارع وطالبوا بتعويضات فورية من السياسيين والمسؤولين الإداريين. لكن سكان بومباي اكتفوا بنشر رسائل قصيرة sms تندد بأخطاء الحكومة المشينة. اللامبالاة في أفضل تجسد لها، وها هي علامة أخرى على مدى عدم اهتمام مواطني مومباي بأزمتنا، وعلى مدى استعدادنا للإشارة بأصابع الاتهام إلى من هم أكثر فقرا. ليس لدى الطبقات الوسطى النهمة في الهند صبر على أنصار حماية البيئة وسكان العشوائيات والفلاحين المكبلين بالديون وأي جماعات أخرى. بحكمة اكتسبوها من صفحات روايات بول كويلهو، التي يلتهمونها بشغف، يتبجحون مرارا بالقول إن هؤلاء الذين يتوجسون من نظام السوق الحر، يرون الكوب نصف فارغ، لكنهم هم ينظرون إلى النصف الممتلئ منه (إنهم غير قادرين على استيعاب أنه طالما أن ثمانين في المئة من الهنود ينفقون أقل من دولارين في اليوم، وهو خط الفقر الذي حددته الأمم المتحدة، فإن القدح يعد في الواقع ممتلئا بمقدار ٢٠ بالمائة فقط).

كل هذه العوامل تآمرت لتجعل مومباي موطنا غير مريح للغاية. في منتصف التسعينيات، عندما كنت أعمل لفترة قصيرة في هونغ كونغ، أعجبت بفكرة عبقرية ابتكرتها إحدى الحانات لتستفيد من زحام ما بعد العمل. كان يمكن لأي شخص الحصول على البيرة بنصف الثمن، وذلك حتى يقوم للذهاب إلى الحمام. وكان يسمون تلك الفترة «ساعة الضغط». مومباي لا تحتاج بالطبع لمثل هذه العبارات الساخرة. فالتنقلات في هونغ كونغ تتضاءل وتتلاشى أهميتها مقارنة بمدينة يحتاج المرء فيها إلى تسعين دقيقة للذهاب إلى العمل ومثلها للإياب. وعلى الأغلب فإن المدن الصفيح على أطراف ساو باولو أكثر رحابة من المساكن المعدلة التي بُنيت في إطار خطة إصلاح العشوائيات في مومباي: العائلات المحظوظة ـ التي تتكون عادة من خمسة أفراد أو أكثر ـ تحشر في بيوت تصل مساحتها على الأكثر إلى ٢٢٥ قدما مربعا. وفيما تم عمل الكثير من أجل العشوائيات في لاغوس وبلغ التوزيع السكاني في المدينة الافريقية إلى نسبة معقولة هي ١٣٨٠ نسمة في الكيلومتر المربع، أظهر في المقابل إحصاء عام ٢٠٠١ في مومباي أن ٢٧٢٢٠ نسمة يتكدسون في كل كيلومتر مربع.

ويضمن هذا التكدس العنيف أن يصل كل إحساس إلى مستوى سريالي. وتبدو مومباي أكثر ضجيجا وتلوثا ولها رائحة أكثر بشاعة من أي مدينة أخرى على ظهر الكوكب. (عندما خرج الكاتب أرتور كوستلر الهنغاري المولد من الطائرة عام ١٩٥٩ لاحظ: "لدي إحساس بأن فوطة مبللة ذات رائحة لُفت حول رأسي"). لقد أعطى الضغط المتواصل للزحام أهالي مومباي قدرة ملفتة على أن يخلقوا لأنفسهم فقاعة من الخصوصية في معظم الأماكن العامة.

دواوين القطارات تتحول إلى قاعات صلاة متحركة، عندما يبدأ رجال بأصوات لا نغم فيها في الصباح بأناشيد دينية وهم في طريقهم إلى العمل صباحا. وفي كل ليلة يمتلأ شاطئ المدينة بالشباب المحبين الذين يعبرون عن رغباتهم على مرأى من الأغراب لأنه ليست لديهم أية أماكن خاصة يمكنهم أن يكونوا فيها على انفراد، والمتزوجون الذين يعيشون في منازل صغيرة مع عائلات أخرى، يهربون إلى الحدائق أو الكورنيش المجاور للبحر لكي يجروا أحاديثهم الخاصة. وأكبر إهانة ناتجة عن نقص الخصوصية في بومباي، يمكن للمرء أن يشهدها على خطوط السكك

الحديدية وبطول الساحل في الفجر. نصف أهالي مومباي - ستة ملايين نسمة - مرغمون على التبرز في الهواء الطلق، نظرا للنقص الإجرامي في عدد الحمامات العامة. يقدر أن بالمدينة ٨٠٠ حمام عام صالح للاستخدام - أي أن المدينة في حاجة على الأقل إلى عشرين ألف حمام إضافي. في دارافي أكبر عشوائية بالمدينة يوجد على سبيل المثال مقعد حمام واحد لثمانمئة شخص. ولو تم استخدام الحمامات بشكل دائم طوال ٢٤ ساعة، فإن على سكان دارافي أن ينتظروا أسبوعا حتى يتمكنوا من الدخول.

لحرصها الشديد على الأراضي، تصبح قروش الأراضي المفترسة دائما على أهبة الاستعداد للانقضاض على الفريسة. ارتفعت أسعار العقارات في مومباي لتصبح من ضمن أغلى الأسعار في العالم. وقد سيطر أصحاب مشروعات البناء على مسؤولي المجالس المحلية من أجل خلق قواعد يمكن أحيانا تفسيرها بشكل غامض. في مدينة تسير في اندفاع تام لا تواجه قروش الأراضي المفترسة إلا معارضة رمزية، فيما هي تزدرد ذاكرة مومباي. من بين أكثر الذين تأثروا سلبا، كان بعض من أقدم سكان المدينة الذين يعيشون في منطقة «غاوثانس»، وهي عبارة عن ١٨٧ قرية حضرية قاومت زحف العقود. لكن تشريعات جديدة ألقت بمستقبل سكان منطقة غاوثانس إلى التهلكة. بالاستعانة بخطة تسمح بإزالة المباني المتهدمة، شيد أصحاب مشروعات البناء أبنية عالية غير ملائمة للمكان محل الأكواخ الصغيرة. وفرض آخرون من أصحاب المشاريع على السلطات أن تعتبر أجزاء من هذه القرى عشوائيات، وقاموا بإعادة إنشائها ضمن خطة إصلاح العشوائيات.

في السنوات الأخيرة، أصبح هناك ميل شديد للتعامل برومانسية مع بلاء بومباي وكربها، فحتى في كتاب سوكيتو ميهتا «المدينة القصوى The Maximum City» الذي يحلل الطبقات المتعددة للمدينة متوخيا الدقة التشريحية، نجده يقع أحيانا في الفخ ذاته. على سبيل المثال اقتبس عدة صحافيين هذا المقطع من كتابه: "إذا تأخرت في ذهابك إلى العمل في مومباي ووصلت المحطة بالضبط في الوقت الذي يغادر فيه القطار الرصيف، فلا تشعر بالإحباط. يمكنك أن تجري باتجاه عربات القطار المكدسة وستجد أياد كثيرة مفتوحة مثل أوراق الزهور لتشدك إلى داخل القطار... فهم

الحي الإسلامي، بومباي
Photo: Roemers/laif



يعرفون أن رئيسك في العمل قد يصرخ فيك أو يخصم من مرتبك إذا فاتك هذا القطار. . . يقولون لك أصعد، سنهيأ لك مكانا بيننا".

لكن مجاز القطار الشعري هذا ليس دقيقا. منذ فترة ليست ببعيدة لقي رجل كان وضع قدمه على عتبة قطار محلي متحرك حتفه بأيدي رفاقه الركاب الذين كانوا يتدافعون من أجل المكان. لقد كانت تلك نتيجة عنيفة غير مألوفة لمثل هذه الصراعات التي تندلع كل يوم في ساعة الذروة، حينما يعطل الركاب من أصحاب المسافات البعيدة نزول الآخرين الذين يركبون لمسافات قصيرة. هؤلاء الذين يعيشون بالقرب من محطتي تشيرش ـ غيت وتشاتراباتي شيفاجي اللتين تنطلق منهما القطارات يدفعون تذكرة كاملة لآخر الخط ثمنا للحصول على مكان الجلوس الثمين في القطار، بدلا من أن يركبوا قطارات قشاشة تقطع مسافات قصيرة، ولقد لُقنوا درسا بأنهم لن يتمكنوا من النزول إلا بعد عدة محطات من هدفهم الأصلي.

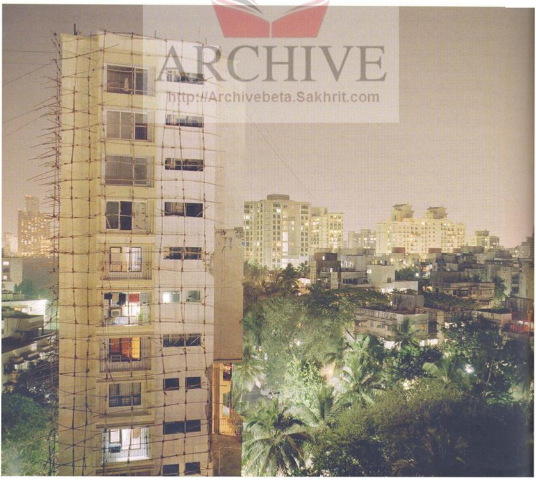
وبالنسبة لهذه الأيادي الممدودة، فإن كثيرا من صديقاتي يعتبرنها في الواقع أذرعا أخطبوطية. ربما تنفتح مثل أوراق الزهور عندما يغادر القطار المحطة، ولكن عندما يتوقف مرة أخرى، تنطلق هذه الأيادي لتتحسس أجساد النساء على رصيف المحطة.

أيضا في نهاية كلمة باتشان على جسر باندارا ورلي سي لينك شيء مشابه لا يأبه بالواقع: "اليوم أوصلتنا الرحلة إلى حافة المنحدر الصخري الكبير للزمن". ثم يشدد: "إحدى الهندين ـ صوت خافت جدا في مؤخرة الرأس ـ ينظر لسفح الوادي ويتردد أما الهند الأخرى فتتطلع للطيران وتقول: حان وقت الطيران". متعمدا، يعبر باتشان الجسر بخطوات سريعة، رغم أن أحدا لا يعرف متى سيتم الانتهاء من بنائه. لا تظهر لنا الكاميرا هدف باتشان النهائي، بحيث تتركنا نتساءل إن كان على طاقم التصوير أن ينتشله من المياه السامة أسفل الجسر.

ترجمه عن الإنجليزية: أحمد فاروق

ناريش فيرنانديس: رئيس تحرير صحيفة Time Out Bombay الهندية.

ناطحات السحاب، بومباي
Photo: Elleringmann/laif



كريستينا برغمان Kristina Bergmann

تحول العشوائيات إلى أحياء نظامية

نموذج القاهرة

تمتد المناطق المعروفة باسم الأحياء غير الرسمية أو الأحياء الفقيرة أو العشوائية على رقعة تعادل نصف مساحة العاصمة المصرية. وأطلقت منظمات المساعدة التنموية الغربية هذه التسمية على تلك الأحياء، لأن فقراء النازحين من الريف بنوا بيوتا دون موافقة الدولة. وتعيش في تلك المناطق غالبية سكان القاهرة.

إذا وقف المرء على قمة جبل المقطم، فإنه يحصل على منظر جميل للعاصمة المصرية وتطورها. ففي الأجزاء الشرقية يتم بناء حي Uptown Cairo، الاسم يوحي بما يحمل بين طياته. الحي هذا مخصص لأثرياء القاهرة أو الأثرياء الجدد. ولكن ولحد الآن تم زرع أشجار النخيل العالية فقط في الحي، حيث ستكون مهمتها في المستقبل صد الأنظار المتجه إلى مساكن الحي الجميلة. على الجانب الغربي وباتجاه مركز المدينة فيمتد حي الفقراء «منشية ناصر». وبإمكان المرء متابعة تطور الحي المستمر من على جبل المقطم وبشكل واضح. فالبيوت القديمة تبدو منخفضة ومعوجة نوعا ما لأنها مبنية من الطوب. المساكن بنيت في ما يسمى بوديان مجرى سيول الأمطار. وهي أخاديد حفرتها الأمطار الساقطة عبر الآلاف السنين في الجبل العتيق.

الجيل الثاني من المساكن بني بالأسمنت المسلح والآجر واتخذت السفوح العليا من الجبل موقعا لها. ولكن هناك قاسما مشتركا بين كل هذه البيوت: فسطوحها مليئة بالنفايات. عن ذلك يتحدث موظف برنامج تخطيط المشترك، وهو برنامج أطلقته هيئة التعاون التقني الألمانية GTZ ويتم تنفيذه بالتعاون مع الحكومة المصرية، خليل شعث بالقول: "إن خدمة نقل النفايات لا تصل إلى هذا الحي غير الشرعي". وهكذا يتخلص السكان من النفايات التي لا يمكن الاستفادة منها من خلال إعادة الاستخدام أو الحرق برميها على سطوح المنازل. وتنبعث رائحة كريهة من الساحات العامة غير المبنية. فمنشية ناصر تفتقر إلى قنوات التصريف الصحي والأماكن العامة تستخدم كمراحيض.

الجبل هو المكان المفضل

يعمل شعث منذ عام ٢٠٠٤ في مشروع تطوير منطقة منشية ناصر التابع لهيئة التعاون التقني الألمانية GTZ، فيما تدير المشروع الألمانية ماريون فيشر. شعث المصري يعرف المنطقة وسكانها جيدا. ويقول عن الأحياء العشوائية: "الأحياء الفقيرة ليست بالأمر الجديد في القاهرة، فمنذ قديم الزمان سكن المهاجرون في مقابر المدينة الكبيرة". ولكن منذ أربعين عاما تسبب إقامة الأحياء العشوائية وغير المرخصة قلقا متزايدا لإدارة المدينة وبلديتها. وقد تسببت هزيمة ١٩٦٧ في نشر اليأس والفوضى في عموم البلاد. عشرات الآلاف من سكان صعيد مصر تركوا قراهم ونزحوا إلى العاصمة على أمل أن يجدوا حياة أفضل فيها. ومن لم يجد منهم ملجأ عند أقربائه التجأ إلى المقابر الكبيرة في المدينة ليسكنها. لكن أعدادهم أخذت بالتزايد وبدأوا بإنشاء الأحياء العشوائية في ضواحي الأجزاء الشرقية من القاهرة وأمام أكبر مقابرها. وأصبح جبل المقطم المكان المفضل للمهاجرين. أما سبب اختيار الجبل فيكمن في أنه لم يكن مأهولا ويقع على مسافة قريبة من مركز المدينة، كما يوضح ذلك شعث. وهذا يعني بالنسبة للنازحين أنه يمكن جلب مواد البناء إلى الجبل بأسعار مناسبة بالإضافة إلى وصول النازحين إلى أماكن عملهم بسهولة في حال حصل أحدهم على عمل ما. وأطلق النازحون الريفيون تسمية «منشية ناصر» على الحي الفقير وغير المرخص تكريما للرئيس المصري الراحل جمال عبدالناصر الذي كان يحظى بشعبية كبيرة بين فقراء مصر رغم هزيمته في حرب ١٩٦٧. ويضيف شعث في حديثه أن النازحين الأوائل جلبوا عوائلهم بعد أن رسخوا أقدامهم في الموطن الجديد. ويوضح شعث أن هدف النازحين كان في ذلك الوقت نقل العائلة الكبيرة من الريف الى المدينة. فالمهاجر يشعر بين أهله وأحبته فقط بالاطمئنان والاستقرار، كما يقول شعث. بيد أن أفراد العائلة المتبقين في صعيد مصر لم يرغبوا بالمجازفة بالهجرة إلى المجهول على عكس الرواد منهم، إذ اشترطوا ضمان الحصول على فرصة عمل قبل الانتقال إلى القاهرة. ويضيف شعث أن الرواد الأوائل وجدوا بسهولة فرص عمل لإخوانهم ولأولاد العم. فهؤلاء ينجزون الأعمال الشاقة وبأجور منخفضة. وهكذا ارتفع عدد سكان منشية ناصر إلى ٨٠٠ ألف نسمة كما يقول شعث، ويضيف أن الأحياء الفقيرة أو غير المرخصة تشغل تغطي

حوالي ٥٠ بالمائة من مساحة القاهرة وتحتضن ثلاثة أرباع سكان العاصمة المصرية والبالغ عددهم ١٢ مليون نسمة. ويتابع شعث حديثه عن هذه الأحياء بالقول إن الدولة وحتى قبل عشر سنوات مضت كانت تسمح للمهاجرين بالسكن في الأحياء غير المرخصة. وربما كان المسؤولون الإداريون سعداء بما يقوم به المواطنون من تنظيم بناء السكن لهم، كما يقول شعث، خصوصا وأن السكان الجدد في القاهرة لا يطالبون بلدية المدينة بتأسيس البنى التحتية الضرورية للأحياء السكنية كما هو معروف في الغرب. ولكن وبعد ارتفاع نسبة الجريمة في القاهرة وبعد عدد من الاعتداءات والتي قام بها بعض سكان هذه الأحياء الفقيرة، خرجت الدولة من غفلتها. وبدأ المسؤولون في الوزارات يفهمون أن العنف له علاقة بسوء الأوضاع السكنية في الأحياء الفقيرة كما يوضح شعث.

من الحظيرة الى مكتب البريد

للوهلة الأولى تبدو أزقة منشية ناصر كباقي شوارع القاهرة المعروفة بازدحامها الكبير وكثرة النفايات والصخب. لكن الفرق يكمن في أن أوضاع أزقة منشية ناصر هي أسوأ من أوضاع شوارع القاهرة وذلك لافتقار هذا الحي لمؤسسات حضرية، كما تؤكد ذلك رحاب المتولي مسؤولة التنسيق المحلي بين الهيئة الألمانية للتعاون التقني و الحكومة المصرية. وتشير المسؤولة المصرية ليس فقط إلى البيوت المهددة بالانهيار وإلى أكوام النفايات في الحي بل أيضا إلى حظائر الحيوانات التي تنبعث منها أصوات تناطح الماعز والغنم. لحوم الحيوانات تشكل أساسا للتغذية بالنسبة لجميع فقراء مصر حتى في المدينة الكبيرة. وبالذات في الأحياء الفقيرة يخصص السكان أماكن في بيوتهم للحيوانات.

وفجأة تشير رحاب المتولي وبكل فخر إلى لوحة خضراء تابعة لمكتب البريد وتقول: "هذا هو نتاج عملنا". إنه المكتب الوحيد والأول في الحي. فمصلحة البريد لم تفتتح حتى ذلك الحين مكتبا لها في الأحياء غير المرخصة حسب قول السيدة متولي. إضافة إلى ذلك، والحديث مازال لمتولي، فقد تم تخصيص الشارع المقابل لمكتب البريد منطقة مخصصة للمشاة، حيث سُمح للأطفال بالرسم على الجدران المجاورة للشارع. الأطفال رسموا على الجدران كل ما يفتقدونه في الحي وكل ما يتمنون أن يكون موجودا فيه: أنهار زرق يسبح الأطفال فيها وزهور متنوعة وأشجار نخيل عالية وأبراج للطيور مبنية من الطين.

ملكية مبنى البريد تعود للدولة المصرية ولهذا السبب بالذات أنشأت الهيئة الألمانية للتعاون التقني مكتبا للاستشارات القانونية العامة بالإضافة إلى مكتب آخر خاص بالاستشارات النسائية. وتقول متولي إن المكاتب الثلاثة تستخدم بشكل مكثف من قبل السكان. ففي مكتب الاستشارات القانونية يبحث السكان عن توضيحات بخصوص عما إذا كان بإمكانهم أن يمتلكوا منازلهم رسميا. أما في مكتب الاستشارات النسائية فتدور هموم الزائرات له حول العنف. فالكثير من النساء والأطفال في الحي الفقير يتعرض للضرب من قبل الأزواج أو الآباء أو الإخوة. في هذا السياق تقول السيدة متولي: "دون مساعدتنا لا يتجرأ الضحايا على الدفاع عن أنفسهم". وبالقرب من المبنى هذا تمت إزالة أكوام النفايات التي كانت قائمة لعدة سنوات وتحول المكان إلى ساحة للعب الأطفال أثارت إعجاب السكان، كما تقول متولي. ورغم وجود المدارس في منشية ناصر ومنذ أمد طويل، إلا أن الحي يفتقر إلى مؤسسات عامة كالبريد ووسائل النقل العمومية وخدمة نقل النفايات إضافة إلى مجاري التصريف الصحي والساحات الرياضية.

ولقد تعلم سكان الحي من تجاربهم المريرة أن عليهم تنظيم كل ما يحتاجونه في حياتهم اليومية بأنفسهم، كما تشير إلى ذلك السيدة متولي. ولهذا شعر سكان الحي بالسعادة عندما تم إنشاء ساحة مخصصة للعب الأطفال. المستجدات في الحي تقع في الجزء الغربي منه وبالقرب من الطريق الدائري حول القاهرة الذي أنشىء قبل عدة سنوات. أما في قلب منشية ناصر فما زالت الأكوام العالية من النفايات في منحدرات الجبل وبعيدا عن أنظار أبناء الطبقة الوسطى والأغنياء. المهاجرون العاطلون عن العمل اكتشفوا فكرة جمع النفايات مبكرا ورأوا فيها ثغرة في اتساع مستمر في السوق المصرية. ولهذا تخصصوا في هذه المهنة حيث يقومون في كل صباح وإلى اليوم بجمع ونقل النفايات من منازل القاهرة مقابل أجرة رخيصة إلى منحدرات النفايات في منشية ناصر. النفايات تنقل إما إلى الساحات المخصصة للنفايات أو إلى الجزء الخلفي من منزل عامل الزبالة. عندئذ يبدأ عمال غير متعلمين ونساء وأطفال بعملية البحث في النفايات عما هو قابل للاستخدام مجددا. أما ما يتبقى من النفايات فيتم حرقه مرة في الأسبوع في نفس المكان.

وقسم زعماء العصابات عملية إعادة الإنتاج للنفايات بينهم. القناني البلاستيكية تقطع في مطاحن بدائية، القطع المعدنية يتم جمعها بشكل خاص، أما المواد القابلة للأكل فيتم تقديمها للخنازير التي تباع لحومها إلى الأقباط. هناك مرحلة مهمة من التطور تجري اليوم حول منحدرات النفايات بعيدا عن مشاريع الهيئة الألمانية للتعاون التقني التنموية وبعيدا عن الحكومة المصرية.

حتى الفقراء يعيشون في ظل نظام هرمي

إن تحويل الأحياء الفقيرة غير المرخصة إلى أحياء سكنية رسمية عملية مكلفة بالنسبة للحكومة المصرية، لكنه يبدو











واجهات، القاهرة

Edgar Cleijne: Façade – Cairo Egypt, 2005,

8 carbon prints 25.4 x 20.1 cm,

Courtesy of the artist.

لها أمرا لا مفر منه بالنسبة لعملية دمج المهاجرين الريفيين والتعليم وخصوصا بالنسبة لعملية الاستقرار في مجتمع المدينة المتحضرة. وهناك حي آخر يحمل اسم «أرض اللواء» وهو من الأحياء الفقيرة غير المرخصة سيتم تحويله إلى حي سكني رسمي. وعلي عبد الله وهو أحد سكان الحي المذكور ويعيش فيه منذ ١٧ عاما يتحدث عن قصته بالقول: "إنه كان في المضي سائقا يعمل لدى الدولة أي موظف دولة، وكان يتقاضى معاشا جيدا ويسكن في حي رسمي هو حي المهندسين" ولكن وفجأة أصاب عينه مرض خطير لم يشف بمرور الزمن وهو أمر تسبب بإحالته إلى التقاعد بشكل مبكر. وتم تعويضه بمبلغ مالي لخدماته كان كافيا لشراء بيت صغير فى حى أرض اللواء. أنشأ عبد الله ورشة فنية في الطابق الأرضي لمنزله. الرواد الأوائل النازحون من صعيد مصر بنوا في البدء مسجدا. ومن الطبيعي أن يتم بناء المسجد فالمسلمون يحتاجون إلى بيت الله للصلاة، ولكن كان هناك سبب آخر وراء بناء المسجد. فالدولة المصرية، وهي دولة تعتبر نفسها مسلمة، ملزمة بتزويد كل مسجد بالماء والكهرباء. وبعد الانتهاء من بنائه وتزويده بالماء والكهرباء، بدأ سكان الحي بسحب خطوط الكهرباء والماء من المسجد الى منازلهم المبنية دون رخصة رسمية. الدولة من جانبها زودت الحي بشبكتي كهرباء وماء مستقلتين بالحي بعد نمو كبير في عدد سكان الحي. ويقول عبد الله إن هذا الشيء يجري في كل الأحياء الفقيرة وغير المرخصة. بيد أن التطور الكبير جاء قبل خمس سنوات وتمثل بإنشاء مجاري التصريف الصحي. فالحكومة المصرية بدأت بربط منازل شوارع عديدة في الحي بشبكة التصريف الصحي وذلك بدعم من دول مانحة. وتم رصف شوارع المناطق التي ربطت بالشبكة الصحية. بعد ذلك ارتفعت قيمة بيوت الحي ، وهو أمر دفع بسكانه إلى بناء بيوت حديثة ومعاصرة. البيوت الجديدة مبنية بالاجر ومطلية بالكلس ومدهونة بألوان زاهية كالأخضر والزهري أو الأصفر. في سياق هذا التطور يقول الفنان المصور حمدي رضا: "لقد جئنا إلى هذا الحي كفقراء، لكن أرض اللواء تطور إلى منطقة سكنية راقية. حمدي رضا نشأ وترعرع في حي اللواء ودرس فن الرسم. وعمل فترة كأستاذ مساعد في كلية الفنون الجميلة. لكن عمله لم يرضيه ولهذا افتتح قل فترة وجيزة أول غاليري فني في حي اللواء. في حفل افتتاح غاليري «فن اللواء» وهو اسم الغاليري، حضرت فرقة موسيقية وشخصيات فنية معروفة. الآخرون من سكان الحي كانوا مندهشين للغاية من افتتاح معرض فني. ففي حياتهم المليئة بالكفاح المرير من أجل البقاء لم يتعرفوا على مصطلح الفن. لكن أم رضا كانت فخورة بابنها وتصفه بالفنان الموهوب والذي يفعل الآن شيئاً من أجل الحي. ورضا بدوره سعيد ايضا لأن والدته قد أجرت شقتين في الطابق العلوي من منزلها بأجر مقداره ٨٠٠ جنيه للشقة الواحدة في الشهر. وهي واردات شهرية بقيمة ما يعادل ٢١٠ يورو وتعادل من جانب آخر الراتب الشهري لعامل مصري. الأجور العالية لشقق الحي تعكس أن حي أرض اللواء لم يعد من الأحياء الفقيرة، بل انتقل إلى مستوى أحياء الطبقة الوسطى.

في غضون ذلك يقوم التلميذ عزت العقدة، ١٥ عاما، بالتدريب في مؤسسة GTZ في منشية ناصر. والده أحد أصحاب المصانع، وعزت لم يغادر لحد الآن محيطه الاجتماعي الراقي. ولهذا أصابه الذهول عندما شاهد لأول مرة في حي عشوائي الدخان المتصاعد من عمليات حرق النفايات وجامعي الخرق. وعندما شاهد الأطفال وهم يعملون وعندما رأى منازل صغيرة تهزها الرياح، قال رغم ذلك "أريد أن أقدم مساعدتي" وأضاف: "على الأغنياء أن يقدموا شيئا من أجل تحسين حياة الفقراء. لكنه يستدرك ويضيف قائلا: "لا أقصد أن يكون الناس متساوين. فأنا أريد أن أبقى غنيا ولكني أريد مساعدة المعدمين على أساس الرعاية الأبوية. ولكن ينبغي أن يقوم الأغنياء والمثقفون بقيادة الفقراء".

عزت يعبر عن تصوارت تسود الطبقة العليا في المجتمع المصري. فالمجتمع المصري ليس مركزيا فحسب بل هرميا أيضا، حسب تعبير الألمانية ماريون فيشر رئيسة مشروع تطوير حي منشية ناصر والأحياء الفقيرة الأخرى. هذه القاعدة الاجتماعية تجد انعكاساتها وبشكل جلي حتى في الأحياء الفقيرة. فهناك تطور في هذه الأحياء مبني على أساس من يترقي إلى مستوى أفضل في حياته يتبنى أوتوماتيكيا مبدأ استغلال الآخرين الذي كان يعاني منه بنفسه. فالأثرياء الجدد في حي منشية ناصر يستغلون جهد عمل الأطفال الفقراء في الحي الذين لم يدخلوا المدارس. رفاهية البعض في الحي الفقيرة تدفع بأسعار العقار إلى أعلى. وهو أمر يعني أن هناك مخاطر من أن تتحول هذه الأحياء الفقيرة إلى مناطق لايستطيع الفقراء السكن فيها لأنها أصبحت مرتفعة الثمن بالنسبة لهم. وهذا يعني بعبارة أخرى أن أفقر الفقراء سيبلجئون مرة أخرى إلى مناطق خارج المدينة لبناء حي فقير غير مرخص من جديد.

وإذا كان الهدف يتمثل بإيجاد فرص متكافئة للفقراء من أجل العيش في ظل ظروف تسودها العدالة الاجتماعية، فينبغي على الدولة أن تعمل من أجل تحويل الأحياء غير المرخصة إلى أحياء سكنية رسمية.

ترجمة: حسن حسين

كريستينا بيرغمان: مراسلة صحيفة: Neue Zürcher Zeitung السويسرية في القاهرة.



Frank van der Salm: Image, 2005, 150 x 120 cm, mounted c-print, Plexiglas

Courtesy of the artist and MKgalerie.nl, Rotterdam.

Chris Abani كريس آباني

ولادة الخردة من الوسخ والنار

لاغوس، «ميغاسيتي» في أفريقيا السوداء

هكذا بدأ كل شيء: في لندن، في مطعم تركي، عيوني تسمر على الثمالة الكثيفة لفنجان قهوتي. هجرت بلدي منذ تسع سنوات. فجأة يلح علي الحنين. أحن إلى لاغوس. تبعث لي في اليوم التالي صديقتي سفام بافي قصيدة للشاعر التركي أورهان فيلي كانيك، أقدمت هي على ترجمتها. تحمل القصيدة عنوان: "أصغي إلى اسطنبول"، هذا أول مقطع فيها:

"أصغي إلى اسطنبول بأعين مغلقة
في البدء تهب نسمة
الأوراق تتحرك
في بطء على الشجر
بعيدا، موغلة في البعد تدق
نواقيس باعة الماء
أصغي إلى اسطنبول بأعين مغلقة"

سنوات بعد ذلك، في مطعم آخر، وسط لوس أنجلوس، خلال عشاء في «ليتل طوكيو»، تقول لي غابي ياوريغي، كيف أن لاغوس التي وصفتها في روايتي Grace Land ملئتها بالحنين إلى ميكسيكوسيتي.

ويتبدى لي في هذا الشهر بوضوح، كيف أن المدن ليست فقط أماكن جغرافية ولكنها أيضا فضاءات روحية، تعج بالحنين وتسكنها السوداوية. إننا نصغي دائما للمدينة التي تسكننا: لاغوس، لندن، لوس أنجلوس، ميكسيكوسيتي. هناك في واقع الأمر مدينة واحدة على هذه الأرض، وأعتقد بأن إيتالو كالفينو كان على صواب:

إنها مدينة غير مرئية. ومع ذلك فإن مدن سوداويتنا غير المرئية، هي في الآن نفسه مناطق جغرافية متعددة المباهج، بها يأس مطبق وغنية بالخواطر والأفكار التي لا يستطيع إنسان القرية أن يدركها. وها هنا لاغوس.

لا أعرف إن كنت أجرؤ على الحديث عن أولى ذكرياتي عن لاغوس. كان عمري يومها أربع سنوات، وأمي وإخوتي الأربعة وصلوا لتوهم من لندن، التي كنا قد هربنا إليها سنة ١٩٦٨، لما اندلعت الحرب في نيجيريا.

مطار إلكيا لم يكن يستقبل الزوار بأذرع مفتوحة سنة ١٩٧٠، وخصوصا نحن، لأن أمي كانت ناشطة معروفة في جمعية المدافعين عن بيافرا، شأنها شأن الكثيرات من أرامل الحرب، اللواتي تظاهرن ضد دعم الإنجليز للجيش النيجيري. ولساعات سُجنا في قاعة كبيرة متموجة السقف وأقدموا على استنطاق أمي.

طبق «أكرا» بزيت النخيل، أوشكت أن أحرق شفتي لما بدأت بتذوقه، هي ذكراي الثانية عن لاغوس. إنها سنة ١٩٨٠، وأمي وأختي وأنا كنا نريد العودة إلى لندن. كنا على متن سيارة باتجاه لاغوس، لأنه تم إلغاء رحلة الطائرة التي كنا ننوي السفر على متنها من إينوغو إلى لاغوس، ليسافر على متنها آخرون دفعوا ضعف الثمن.

وبعد ثماني ساعات في سيارة أجرة مثيرة للتقزز توقفنا في شاغامو، على بعد خمسين ميلا من لاغوس، لتناول وجبة غذاء سريعة. يومها كانت ضواحي لاغوس قد امتدت حتى شاغامو.

أما ذكراي الثالثة عن لاغوس فتتعلق بعمي ويليام. لم أعرف أنه كان لي عم يدعى ويليام حتى موته. يومها كنت في الخامسة عشرة من عمري. حضر إلينا رجلان، وزعما بأنهما من جماعة العم ويليام.

وبدا أن العم ويليام، بعد أن هرب من المدرسة في ألمانيا وعزف عن الحضور إلى جنازة جدتي في القرية،

لم يتم طرده من الأسرة ولكن من ذكرياتها أيضا. وعلى الرغم من ذلك، ظل يهيم على وجهه في كنيسته الصغيرة، في «المغـرب»، أسوأ غيتو في المدينة. وبحثا عن هذا الـعم، هذه الذكرى، هذا الضياع، والذي لم أستطع يوما التـعبير عن كنهه، سافـرت لأول مرة كراشد نحو لاغوس، عبـر الأوتو ستوب، القطار والشاحنة.

حللتم أهلا ولكن..

لما وصلنا لاغـوس، توقفت أعـيننا على لافتـة في الطريق لم يكتب عليـها أكـثر من هذه الجـملة: "هذه لاغوس" لا "مرحبا بكم في. . . "ولا "تمتعوا بإقامتم في . . . " ما زلت أتذكر أنني يوما اعتقدت بأن ما كتب على اللافتة هو أشبه بتحذير. لربما أنني أكذب فيما أزعمه اللحظة.

تحوي هذه المدينة قنوات لا نصادفـها حتى في البندقية، لكن الفـرق بين هنا وهناك، هو أن أغلبية القنوات قامت هنا بالصـدفة: مجـار تتحول إلى طرق مائيـة، بحيرات بين بيـوت خشبيـة ممتلئة بمشاتل الأشـجار مخـصصة للصناعات الخـشبية، لا تـعرف الأغلبية شـيئا عن وجودها، وكل ذلـك يتم نقله على مراكب صغيرة تبحر في رشاقة عبر القنوات المائية.

الطفلان اللذان كـانا يتسولان على الطريق العـام، يأخذان اللحظة قسطا من الراحـة. إنهما يقعـيان على جانب الطريق ويظهران مثل زوجين طاعنان في السن، يتوجب عليهما أن يقنعا بغذاء زهيد، قبل أن يهويا باتجاه الموت.

كاتدرائية المسـيح تمتد بين الطريق العام وسوق بالوغون تمامـا كما ترتفع كاتدرائية روين في دراسـة مونيه. وتحت ظلالها، على ساحـة كبيرة، يباع أفضل طبق «مامـا بوت» في كل المدينة. وتحظى المطاعم التي تقدم هذه الوجبة بشهرة كبيرة في كل البلد. ويمكن للمرء أن يسمع خلال ذلك تعليقات الذواقة أو كيف يساومون الباعة: " Make sure you put plenty Kpomo " ، أو: " No Miss, dat shaki!, no,no!! Dat other one!! ".

لا وجود لموسـيقى ولا لكورس أجمل من هذه الأصـوات. وبعيدا يرتفع صـراخ محصلي الحافـلات مثل الفايكينغ وهم يصرخـون من على متن مراكبهم، يصرخون من وراء دخـان حافلاتهم: "أوبالاندو. . دون توقف"، "يابا دون تغيير".

وفي ظلال العمارات الكبيرة، خلف البنايات التي تضم مكاتب الشركات الكبيرة المطلة على الشارع الكبير، تمتد لاغوس الحـقيقية مثل حصيرة من الأسطح الصدئة. وفي إكـوي بوي تمخر الزوارق البحر، أشرعـتها نوارس كسولة يقذف بها الهواء في كل اتجاه، وعلى الضفة الأخرى من باي، حيث كان يقوم ذات يوم غيتو «المغرب»، تمتد قرية الأغنياء، إكوي، خلف سحاب خـفيف. أعتقد بأن هذا السحاب هو روح هذا المكان المضمحل، الذي يزور الأغنياء والذين رغم منازلهم المسيجة بجدران ترتفع لأربعة أمتار، والمحصنة بالأسلاك الشوكية وقطع الزجاج الماضية، ورغم الأضواء الكاشفة والحرس المسلح، المستعد في كل لحظة للانقضاض، لن يجدوا إلى راحة البال سبيلا، لأنه ستنغص راحتهم لا ريـب نهنهة امرأة مقهورة، تبكي ابنها الذي مزقته إربا عجلات شاحنة. لكن، أعود وأقول، لربما هو فقط البرد، الذي يهب عبر سعاف النخيل.

إذا كانت لاغوس جسدا وأنابيب النفط التي تمتد متعرجة في كل اتجاه عروق هذا الجسد، فإن سكان المدينة مصـاصو دماء. عمـلية امتصـاص الدم هذه حديثة العـهد. بدأت في بطء. أحدهم حـفر ثقبـا في أحد الأنابيب من أجل سرقة القـليل من النفط، برميل هنا وآخر هناك، ليزداد العـدد مع انصرام الوقت، ويبدأ الناس مثل حشـرات أرهقها الجوع والعطش بوخـز العروق، رغم أن الأخطار التي يواجهونـها خلال تلك العملية ما برحت تكبر مع مرور الوقت.

استمرت المدينة بالنزيف بترولا حلوا. سيعمـدون إلى بيع البترول وإعادة بيعه، حتى اضطرت المدينة يوما للتمرد. العروق التي بالغ الناس في امتصاصهـا، بدأت بالإنفجار، مثل مريض يريد أن يحمي جسده من فيروس قـاتل، بدأت المدينة بقتل طفيلييهـا وأشباحها. يموت كل سنة الآلاف في لاغوس عند مـحاولتهم سرقة النفط. أما المدينة فعليها أن تعيش.

باد آغري تفتح أفخاذها أمام البحر، منطقة جميلة، حتى أن الملك أكيتوي، لما اضطر للتخلي عنها في ظل شروط سيئة للإنجليز، علق آسفـا على ذلك: "اتفاق سيئ" ومن هذا التعليق اشتق اسم المدينة: Badagree. وفعلا فإن لاغوس بلد الأسطورة. لاشيء وجد هنا قبل أن تتخذ هذه المدينة اسما.

كوكاكولا منعشة، تماما كما يعدنا بذلك الإشهار

بار بيتش لا تخطئه عين الرائح مساء السبت. الشاطئ أبيض، وبناية البنك الزجاجية التي تقوم على الضفة الأخرى تعكس الماء، وتبدو مثل موجة متجمدة. أطفال يمتطون أحصنة ممتلئة بالبراغيث ويصرصرون فرحين من الخوف والرهبة، المكان يعبق برائحة لحم غنم يشوى.

زجاجة كوكا باردة تتمتع هنا بنفس المذاق الذي يعدنا به الإشهار التلفزي ـ كلمة شرف. وفي مكان ما داخل الماء تعمد مجموعة من المؤمنين في زيها الأبيض والتي تنتمي إلى كنيسة شيروبيم وسيرافيم بعضها البعض وتصرخ في نفس الإيقاع باسم العذراء وباسم إلهة البحار يميا. كما لو أنها نازلة لتوها من قصيدة لوول سوينكا.

سيارات ب.م.ف لماعة وليكسوس تحتشد على طريق الشاطئ وتفتح شهية الشباب إلى المال والسلطة والامتيازات واللمعان. لكن لا يمكن أن نرى اليوم شيئا من تلك الإعدامات التي كانت تنفذ في سنوات السبعينات. يومها كانت عائلات بأكملها تحضر لتهلل للرصاص الضوئي الذي تطلقه وحدات الشرطة على اللصوص المحكوم عليهم بالموت.

وتشبه لاغوس عاهرة كوسموبولوتية بشبكة قناطرها الملتوية. وإذا ما انطلق المرء ليلا على ظهرها ينتهي به المطاف أمام: الجسر البري الثالث Third Mainland Bridge.

وانعكاس الأضواء على الماء يملأ العيون دهشة

لاغوس لا تنام. لا، أبدا. وتظل مستيقظة لزمن طويل، بعد أن تكون نيويورك قد بدأت بالتثاؤب مغمضة عينيها. وحدها ليالي القاهرة البيضاء يمكن مقارنتها بليالي لاغوس. خمسة عشرة مليون نسمة. أحد أكبر مدن العالم. وعلى الإنترنت يعد مكتب السياحة الزوار بأشياء كثيرة: "في لاغوس يجد كل زائر بغيته. لعبة التنس. كرة القدم. الغولف. وإذا ما رغبتم بالعمل التطوعي فهناك الكثير مما يمكن القيام به هنا: دورات محاربة الأمية، مآوي الأيتام، مدارس المكفوفين.. أما إذا كنتم من جامعي الأعمال الفنية، فيمكنكم الحصول هنا على أعمال فنية من غرب افريقيا، أقنعة، مسابح، طبول، أثواب وعكاكيز. يمكن العثور على كل شيء في لاغوس. ولتشتروا مظلتكم الشمسية على أحد شواطئنا. أما إذا ما طلبتم السفر، فلاغوس نقطة انطلاقكم باتجاه شرق افريقيا. إننا نقدم الموسيقى في مركز الجمعية الموسيقية، في معهد غوته الثقافي الألماني وأماكن أخرى مختلفة".

لاغوس، نيجيريا

Photo: Grabka/laif



مثل الرجل الذي يجلس على ركام سيارته المرسديس المحترقة، وهو يريد أن يقنع أحدهم بأن كل ما حدث ليس أكثر من حظ عاثر ما يلبث أن يفارقه. سيصبح من جديد رجلا غنيا، وبين أقدامه يبحث فأر عن جحره. وقبالته على الطريق، تجمعت جثث الفئران التي تم رميها من المنازل، والطريق نفسها اتخذت شكل أوراق الخريف الذابلة.

تقوم في جزيرة فيكتوريا منازل لم يحلم بها حتى أغنى أغنياء أمريكا. لكن في إكويي، يبدو الغنى خافت الملامح: فهنا لا يتعلق الأمر بالبيت ولكن بالأرض، الأعشاب المشبعة ماء، والصوت الهادئ الذي يصدر عن الأمواج وهي ترتطم بالمركب المربوط بالجسر، هناك في نهاية الحديقة.

وتحت اللافتة الحكومية التي كتب فوقها: "حافظوا على نظافة لاغوس!" تنمو مدينة من الأزبال، تبدو أشبه بعمل فني أنجزه فنان مجنون، إنها تنمو وتنمو بلا توقف.

بل حتى إذا انعدمت الطوابع البريدية لدى مكتب البريد وانقطع الخط التليفوني، تستمر الهواتف النقالة في العمل دون توقف. تستمر الحياة بوجود الحكومة أو في غيابها، تستمر بشكل جيد. لربما رغم أنف الحكومة.

شيء واحد لا ريب فيه: لاغوس ليست مكانا للفقراء. ورغم أن الأغنياء لا يعرفون ذلك أو لا يستطيعون رؤيته، من على متن حواماتهم أوسيارت الليموزين التي يستقلونها، فإن المراكب الصغيرة هي وسيلة التنقل الرئيسية بالنسبة للفقراء. المراكب أو الحافلات الصغيرة والقديمة.

اللافتة من فوق مدخل السوق الذي ينتصب في الهواء الطلق، وقد كتب فوقها: مدينة الحاسوب العملاقة. ليس ذاك بنكتة. فهنا يوجد كل شيء له علاقة بالحاسوب ولوازمه، القديم منها والجديد. ففي لاغوس لا يتعلق الأمر بما يمكن الحصول عليه، ولكن بالقدرة الشرائية للزبون.

الأنتركونتينونتال يبدو كما لو أنه خارج لتوه من فيلم من أفلام الخيال العلمي. إنه يصلح أكثر لمدينة مثل لاس فيغاس. فداخل هذا الفندق العملاق يمكن للمرء أن يشعر كما لو أنه يتواجد في أي مدينة في العالم.

صلوات في الطريق

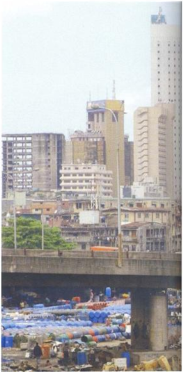
يضطر مؤذن المسجد الكبير في إيدوموتا أن يرفع صوته حتى يواجه جلبة السيارت والحافلات غير المنقطعة، وأصوات الباعة المتجولين، احتكاك الحديد بالحديد والأصوات المنبعثة من ملايين البشر، الذين يحاولون شق طريقهم عبر شوارع مدينة، تبدو أصغر من أن تستطيع تحملهم دفعة واحدة.

ومع ذلك، ووسط الحرارة المنبعثة من أثر الناس والضوضاء، يمكن سماع صوته، صوت الدعوة إلى الصلاة. وهكذا يخر المؤمنون أرضا، وسط الزحام، كما لو أن رصاص قناصة غير مرئيين أصابهم ويبدأون الصلاة. وكما لو أنه من الأمور الأكثر عادية في العالم، يعمد الراجلون ومعهم الحافلات والسيارت إلى تجنب صفوف المصلين.

أما مرفأ اليخوت في لاغوس، فيبدو مثل ناطحات سحاب نيويورك. لايتوجب عليكم أن تصدقون ذلك. أنظروا فقط إلى صفحات غوغل.

وفي مكان ما في الخارج يمكن للمرء أن يعثر على «سوق العبيد»، لاتندهشوا لذلك. فعديد من سكان لاغوس أثروا بفضل تجارة العبيد. كانت تجارة مربحة. هل يا ترى نسوا ذلك مرة أخرى؟

اليوم أسمع في برنامج إذاعي في لوس أنجلس عن مطعم عالمي في لاغوس. والآن يرخي الغروب سدوله على المدينة. أشرب قهوتي وأصغي إلى لاغوس بأعين مغلقة.



ترجمة: رشيد بوطيب

كريس آباني: روائي نيجيري يقيم في الولايات المتحدة وبريطانيا. حصل على العديد من الجوائز الدولية.

المصدر: © Süddeutsche Zeitung, 29.12.2006

تينا شوت Tina Schott

جاكرتا ـ حياة بكل أطياف اللون

ناطحات السحاب، الازدحام والفيضانات



هذه هي جاكرتا: فيضانات، أحياء فقيرة غير قانونية وازدحام وملاريا. ازدحام ولا شيء غير الازدحام. تتكاثر المشاكل بقدر ما تزداد المراكز التجارية الكبرى. وهي تحديات كبيرة تواجه فوزي بوفو أول محافظ انتخب بشكل مباشر للعاصمة الأندونيسية جاكرتا. وكما هو الحال مع سلفه سوتيوسو فإن لدى بوفو حلولا جاهزة لجميع المشاكل: توسيع شبكة مجاري المياه، تحسين الخدمات الصحية، بناء مترو الأنفاق. كيف ذلك وبأية ميزانية يريد المحافظ المنتخب تحقيق ذلك؟ هذا ما لم يفصل بوفو في شأنه حتى الآن.

جاكرتا مركز يقصده سكان الضواحي بحوالي ٢٣ مليون نسمة وتحتل بذلك المرتبة الرابعة عالميا، وتحتل المتروبول بساكنتها التي تصل إلى ٩ ملايين نسمة حسب الاحصائيات الرسمية المرتبة الثالثة عالميا من حيث الثلوث البيئي. وعندما غمرت المياه حوالي ٧٠ في المئة من المدينة، كان جزء كبير من هذه الكارثة من صنع الإنسان، فقد تحولت أنهار جاكرتا إلى مزابل متنقلة. فبدلا من اتخاذ إجراءات وقائية ضد ارتفاع منسوب المياه والتخلص من أكوام القمامة سمح المحافظ السابق سوتيوسو ببناء المزيد من المراكز التجارية الكبرى والتماثيل الشاهقة. وكان من نتائج كثرة البناء الاسمنتي المبالغ فيه للمدينة أن اختفت تماما كل المجالات الخضراء التي من شأنها امتصاص هذا الكم الهائل من المياه كما حصل في الفيضانات الأخيرة. وحسب المخططات العقارية القديمة كان من المفروض أن توجد مناطق خالية، لكننا نجد اليوم مراكز تجارية تشد الأبصار، ولا يستطيع السكان سوى التفرج على واجهاتها.

ورغم ذلك جاكرتا هي دائما وجهة مفضلة إذ يقصدها العديد من الناس سواء بدافع البحث عن الشغل أو التعليم، إنها بوابة لولوج العالم. وهي عاصمة هذا الأرخبيل الكبير المكون من سبع عشرة جزيرة، هذا المغناطيس الذي يجذب ٢٤٠ مليون نسمة وهم سكان أندونيسيا. وإذا كان المرء قد يفزع منه، للوهلة الأولى بسبب الأوساخ، إلا أنه، الأرخبيل، يشكل وحدة متماسكة لإثنيات وثقافات وديانات شعوب أخرى تمارس تأثيرها الكبير. وراء الأسمنت يوجد الفن، الموسيقى، المسرح، حياة ليلية، إذ يؤكد الأندونيسيون أن جاكرتا تقدم أفضل ما يوجد في جنوب شرق أسيا. إن الأثرياء وكذلك الأجانب الذين يقطنون أحياء راقية خاضعة للمراقبة شبيهة بغيتوهات و لا يتركونها إلا بواسطة سيارات الليموزين المكيفة، لا يعرفون شيئا عن هذا التعدد الذي تحجبه من جهة الطرق السيارة والمكاتب العالية وأيضا فنادق الخمسة نجوم.

في واقع الأمر هناك جاكرتا أخرى. فإذا كان الجو صحوا إلى حد ما والسماء لم تكن ملبدة بالدخان الناجم عن التلوث، يمكن مشاهدة صرح «Monas» الوطني القائم على أربعة أعمدة من الأسمنت التي تعانق السماء بعلو يبلغ ١٣٧ مترا. بكل تأكيد ليس هذا الصرح هو الأعلى في جاكرتا غير أنه مدين إلى الحديقة التي تحيط به من كل جانب والتي تمتد على امتداد البصر. نفسها وسائل المواصلات التي لا تحد يمكن رؤيتها من هنا، ولكن أيضا بشكل مغاير وسط ناطحات السحاب والأسقف المشيدة من السيراميك والأخرى الشفافة حيث تختلط بخطوط الهاتف وصحون الفضائيات، وسط كل هذا تطل من حين لآخر حتى بعض الأشجار.

وسط متاهات هذا التجمع يعيش جزء كبير من سكان جاكرتا. وفي الأزقة الضيقة التي لا تسمح بمرور أية سيارة لا يوجد لا ازدحام ولا ضغط في حين يمكن للزائر أن ينعم بحساء أو بوجبة أرز؛ فالبائعون المتجولون يحملون مطبخا متنقلا على متن عرباتهم الخشبية. وأثناء الليل يأتي الشباب جماعات يعزفون آلة القيثارة في الوقت الذي يناقش فيه المتقدمون في السن أمور الدين والسياسة. لو يتخيل المرء المدينة دون أدخنة التلوث أو الأوساخ لكانت المدينة فضاء في غاية النظام.

ترجمة: محمد مسعاد

تينا شوت: صحفية ألمانية تقيم في جاكرتا.



جاكرتا
Photo: Malherbe/laif



سائو پائولو

Francesco Jodice_WHAT WE WANT_SÃO PAULO R33 2005

240 x 180 cm, c-print on wallpaper, Courtesy of the artist

الجدار: جمالية الحدود المعقدة

«فكر وفن» تحاور صاحب كتاب «الجدار»

صدرعن دار شتايدل الألمانية للنشر مؤخرا الكتاب الجديد للمصور الألماني المعروف كاي فيدنهوفر بعنوان «الجدار». وهو الكتاب الثاني لفيدنهوفر الذي يتناول ملف النزاع الفلسطيني الإسرائيلي. وبمناسبة صدور هذا الكتاب أجرت «فكر وفن» الحوار التالي مع المصور الألماني. أدار الحوار: شتيفان فايدنر

فكر وفن: عشت لفترة طويلة، في التسعينات تحديدا ،في فلسطين، بالأساس في قطاع غزة. لقد عملت هناك كمصور، في كتابك الجديد «الجدار» تذكر إنك لا تود حقا أن تعود إلى هناك. لم لا ترغب في العودة وما الذي دفعك يا ترى أن تعود من أجل هذا المشروع بالذات.

كاي فيدنهوفر: عشت في قطاع غزة في الفترة من آذار/ مارس ١٩٩٣ وحتى نهاية حزيران/ يونيو ١٩٩٤ باستثناء استراحة لمدة ثلاثة اشهر في صيف ١٩٩٣، حيث عدت لدراسة اللغة العربية في دمشق. طلب مني حسان عباس، أستاذي في المعهد الفرنسي لتعليم اللغة العربية في دمشق، أن أقوم بترجمة اتفاقية أوسلو والتعليق عليها، حيث كنت قادما لتوي من قطاع غزة. وهكذا أصبحت مناوئا لهذه الاتفاقية، قبل أن يتم حتى التوقيع عليها. حين عدت إلى غزة، كان كل من تحدثت معه عن هذه الاتفاقية يعتبر بأنني حمساوي، من أتباع حماس، التي كانت ضد تلك الاتفاقية. كان ذلك من باب التهكم فقط، لان العلاقة بين الأطراف كانت حينذاك أفضل بكثير مما هي عليه اليوم. كنت على قناعة تامة بأن هذه الاتفاقية ستسير في اتجاه يتنافى مع مصالح الفلسطينيين وستكون كذلك ليس في صالح الإسرائيليين على المدى البعيد. في الصحافة الألمانية كان ينظر إليّ آنذاك على اعتباري وحيدا تماما وكان الكل يعدني متطرفا. كان روبرت فيسك هو الوحيد في أوروبا الذي كتب ضد هذه الاتفاقية. التطورات اللاحقة سارت بشكل أسوء بكثير مما توقعت. يسرني أن اذكر هنا حديثا مع طالبة معتدلة من بير زيت علقت على اتفاقية اوسلو قائلة: "هكذا جاء هذا الاتفاق ليقود الى الحرب التالية.

ما كان يضايقني تماما ويبعث على الإحباط هو الدعم الذي يقدمه الاتحاد الأوروبي وبضمنه موقف ألمانيا، رغم التوقعات المنتظرة لما ستؤول إليه الأحداث. أنا أعتقد أنه تمت إضاعة فرصة جيدة من أجل السلام والآن أصبحت نقطة الانطلاق أسوأ مما كانت عليه من قبل. أما الجدار العازل فإنه لن يقود إلى تحسن الأوضاع، بل سيؤدي إلى مزيد من العنف. ما يجعلنا نستبعد يوما مثل التاسع من تشرين الثاني لعام ١٩٨٩، حيث سقط الجدار في ألمانيا. لقد استنفدت كل ما لي من قدرة على تحمل الإحباط إزاء القيادات السياسية لكلا الجانبين، ناهيك عن خيبتي من الموقف الأوروبي والولايات المتحدة الأمريكية. ولكي أكرس اهتمامي لهذا الموضوع مجددا، فإني بحاجة إلى منطلقات مختلفة للتصوير، لأني لا أرغب في أن اكرر نفسي تصويرا وباستمرار، كما أود كذلك أن ابتعد عاطفيا بفعل حالة القنوط هذه. بالتأكيد كان يمكن أن أكون على تماس مع الجدار وفقا لطريقتي القديمة، بيد أني، علاوة على هذا، ليس لدي أي حافز لذلك.

إذن، أنت حاولت أن تقترب من هذا الموضوع وفقا لأسلوب جديد. أين يكمن هذا الأسلوب الجديد؟

يتمثل ذلك، في البداية، في استخدام كاميرا من الحجم الكبير تتيح لنا الحصول على منظر متكامل. بعد انقطاع عن العمل في إسرائيل والمناطق الفلسطينية لمدة اثنين وعشرين شهرا، بدأت في توثيق الجدار. فالصور الكبيرة الحجم على الخصوص ذات الأبعاد التناسبية ١:٣ التي هي الوسيلة المناسبة للتعبير عن هذا الموضوع، كانت في البداية مجرد محاولة جعلتني أشعر، على وجه السرعة، بغبطة كبيرة حقا. فمجرد أن لا يتسع الفيلم الواحد لأكثر من أربع إلى ثمان صور، والمسافة ينبغي دائما أن يتم تقديرها وكذلك قياس الضوء يدويا، كل هذا يعطي



جزء من الجدار الفاصل بين إسرائيل والضفة الغربية، القدس
نيسان ٢٠٠٤

Photo: Kai Wiedenhöfer, from his book Wall, published by Steidl Verlag (Göttingen 2007).



تباينا جميلا إلى قدرة الكاميرا في أخذ صور تتميز بالوضوح بطريقة أتوماتيكية وبسرعة عشر صور في الثانية الواحدة بواسطة الكاميرا الرقمية. أنا أود بالفعل أن أفكر على الدوام وبدقة، ما الذي أعمله كمصور. هذا يكون بالطبع على تباين مع ما تقوم به وسائل الاتصال اليوم. إذ أن معيارا وحيدا يبدو مهم لديها لا غير: السرعة

إن استخدام كاميرا جديدة واتخاذ منحى مغاير تماما في التصوير قاد إلى نتائج جديدة للغاية، إلى جمالية جديدة: أي لم تعد معبرة، وديناميـة، أسود/ أبيض؟ وفقا لأسلوب الريبورتاج المُصَوَر لماغنوم الذي طبع عملك في غزة ـ حتى وان وجدنا بالطبع آثارا من ذلك: بدلا من هذا، كثيرا ما يتم استحضار لوحات لمناظر كلية ذات مساحات محددة بوضوح وباذخة، تذكرني أحيانا بالمدارس المعاصرة لـلتصوير المعماري و تصوير المناظر الطبيعة. هل تشاركني الرأي في هذه التقديرات، هل ترى في ذلك استمرارية، وهل ستواصل العمل في هذا المنحى؟

على العمـوم، ينطلق المرء في الفن من مسألة أن لكل فنان أسلوبا خاصا به، بحيث نستطيع القول: آه، إنه الفنان (آ) ،فأنا أتعرف عليه من الأسلوب (ب). ليس في هذا إبداعا حقا، إني أكرر نفسي باستمرار، أنا ملتزم في مجال ما وأقدم ما ينتظره الناس مني، سواء كان ذلك في الصحافة أو الفن. ألا ينبغي أن يسأل، أي أسلوب يقتضي هذا الموضوع، بدلا من أن نقلب باستمرار قوالبنا الخاصة حول هذا الموضوع؟ لذا أجد كتب رايتسارد كابوشينسكي Ryzard Kapuscinski رائعة في هذا المجال: كل مؤلف من مؤلفاته ذا أسلوب مختلف عن الآخر ومع ذلك تعد تحفا على الدوام. كي يكتب سيرة حياة «ملك الملوك» هيلاسيلاسي درس لغة البلاط في القرن السادس عشر وأجرى مقابلة مع رجال حاشيته فقط. في كتاب «الإمبراطورية»، انهيار الاتحاد السوفيتي، دون ذلك في جمل طويلة عن بلد لا ينتهي. بهذا المعنى أثبتت كاميرا الصورة المتكاملة أنها الأداة المناسبة لتصوير الجدار. إن صوري الخاصة تبعث الملل في نفسي، فأنا لا أود أن اكرر نفسي، عدا ذلك أرغب، في المستقبل، أن أعمل أكثر من أن أستجيب. هكذا إذن لا أركض، بعد الآن، خلف حدث أو فعالية ما: إن كان تشييع جنازة شهيد هنا، فإني ذاهب إلى هناك، إن نشبت حربا في لبنان، أسافر إلى هناك. ماذا يعني لنا هذا؟ الحرب سيئة، لا إنسانية وغير عادلة؟ هذا بديهي بالنسبة إلينا، أليس كذلك؟ أنا أريد أن أعمل وفق مشروع وخطط معينة وأن أصيغ آرائي الخاصة. هكذا سيكون أول ما أقوم به في القريب هو إعداد مشروع عن الحدود، والأسوار والجدران.

المسألة التالية ستكون كالآتي: ماذا يعني جدار ما؟ هو قبل كل شيء دليل، قُدَّ من حجر، دليل على الضعف البشري والخطل، على عجز البشر على التفاهم مع بعضهم البعض.

كيف تتعامل مع مشكلة التقييمات الجمالية للمادة؟ أنت كمصور ملتزم، ترغب إذن، من ناحية، أن تؤثر، تغير وتنتقد ولكن في نفس الوقت تنبثق من ذلك، أحيانا، صور جميلة تبعث على النشوة. وبذلك تفلح دائما في الحفاظ على التوازن ـ كيف يتأتى لك هذا؟

لست قادرا على التغيير ولا التأثير من خلال التصوير. إن عبارات مبتذلة كهذه لا تصح على عالم وسائل الإعلام. غير انه من المؤكد أن بوسعي ممارسة النقد والإيضاح. الجمالية، والسخرية والصدمة هي هنا ليست سوى وسائل للتأثير على هذا الواقع. حاليا أولي اهتماما أكبر للجمالية، لنقل آرائي حول موضوع ما. لكني بالطبع ما زلت نفس ذلك الإنسان الذي يقف خلف الكاميرا. غير أني استخدم الكاميرا بطريقة مختلفة.

لست بحاجة إلى إيجاد توازن، يكفيني أن أعرف ماذا أريد. إن الانفعالات جعلتني ابتعد أكثر عن الناس، هذا ما يظهر في الابتعاد المكاني الكبير من الناس في الصور، خاصة، بالقياس إلى أعمالي القديمة في الأراضي المحتلة. هذا يعكس سأمي من هذا الموضوع ومن تلك السياسة التي استشعر أنها تمثل فشلا ذريعا لكل الأطراف المعنية.

كيف يُستقبل عـملك على الأرض، سواء كان من الجانب الإسرائيلي أو الفلسطيني. وما هي الصعـوبات والأحكام المسبقة التي تناضل ضدها، وما هي أوجه الدعم التي تحصل عليها؟

هناك علاقة إيجابية للغاية مع الإسرائيليين مثل منظمات «أحبار من أجل حقوق الإنسان» و «الفوضويون المعادون لبناء السور» إنهم مصدر لا ينضب يشحنني بالحوافز، كذلك الحال مع الفلسطينيين الذين يقطنون بمحاذاة الجدار ومن تضرروا منه بصورة مباشرة. أما مع الجيش الإسرائيلي وشرطة حرس الحدود فكانت لي معهم ذات المواجهات "المألوفة"، كما اعتدت عليها في غزة بكل بساطة. في غزة كان الأمر في بعض الأحايين يتسم بالخطورة، بيد أنه في المظاهرات التي تقام في الضفة الغربية تؤدي مشاركة المتظاهرين الإسرائيليين إلى

جانب الفلسطينيين إلى التخفيف من حدة الموقف. هكذا أوقف، على سبيل المثال، آمر وحدة إسرائيلية إطلاق الأعيرة المطاطية، حين أبلغته أن جنوده قد أصابوا لتوهم أحد الإسرائيليين إصابة بالغة في الرأس.

أنت أصبحت معروفا بصفتك مصورا متخصصا في شؤون الشرق الأوسط. هل جاء هذا التخصص بمحض الصدفة، أيكمن ذلك، في أن الأزمات الراهنة هي قائمة، ببساطة، هناك، أم كيف جاء اهتمامك بالشرق الأوسط؟

حين قمت للمرة الأولى عام ١٩٨٩ بزيارة إلى إسرائيل والأراضي المحتلة، الشرق الأوسط لم يكن آنذاك منطقة الأزمات رقم واحد في العالم. ما أثار اهتمامي هو كتاب ليون اوريس «الهجرة الجماعية»، قرأته وأنا في سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة. بدءا من هذا الوقت شغفت بقراءة المقالات والكتب عن هذا الموضوع. في عام ١٩٨٢، حين كنت في الفصل العاشر، كان علينا في مادة السياسية أن نتابع موضوعا طيلة العام. وقع اختياري، بالطبع، على الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني. بعد ثلاثة أسابيع من ذلك قامت ميليشيات حزب الكتائب المسيحية بدعم إسرائيلي بمجزرة ضد الفلسطينيين في مخيمي «صبرا وشاتيلا» في بيروت وكان هذا بمثابة أول مثبط كبير يؤدي إلى فتور حماسي لإسرائيل. أما فيما يتعلق بالتصوير، فقد بدأت اهتماماتي بذلك في مرحلة الدراسة الإعدادية. كنت أحاول أن أجمع بين اهتماماتي السياسية وفن التصوير واشتغل على مواضيع كالمقابر اليهودية ومعسكرات الاعتقال، قبل أن أقوم بزيارتي الأولى إلى البلد المقدس.

ما هي المجالات الجغرافية وأي المواضيع تستحوذ على اهتمامك الآن؟

في منتصف التسعينات حاولت أن أجعل من الصين موضع الاهتمام الثاني في عملي وشرعت في تعلم اللغة. أنا أجد أن التطورات هناك ما تزال مثيرة للاهتمام، بيد أني لم أقدر على إيجاد شعور من التعاطف مع الصينيين وتفهما لرأسماليتهم، "رأسمالية العصر الحجري". وقد جاءت حصيلة تكاليف العمل للقيام بتقارير مصورة عن مناجم فحم صينية ومؤسسات تحت ما يسمى «Start Up» في السنوات الأخيرة تأكيدا على ذلك. وهكذا بقي الشرق الأوسط حقلا استقي منه مواضيعي. عدا ذلك أود أن أقوم بمحاولات متزايدة إلى تصوير تلك المواضيع، كما هو الحال، على سبيل المثال، مع مواضيع الأسوار والحدود، التي لا ترتبط بمناطق جغرافية معينة لتقديم شهادة عن حالة عالمنا بشكل عام.

هل يصعب حقا، التخلص من الصورة السائدة المصورة، أم أنك أصبحت محمولة على رهان لمشاريعك الجديدة؟

أنا أبتعد بعملي الخاص عن الصحافة. ولذلك علاقة، بالدرجة الأولى، في نوعية عمل وسائل الإعلام الذي تدهور لدرجة إنني لم أعد قادرا على أن أوفق بين ذلك وبين أخلاقياتي الحرفية هذا ما أعزوه، قبل كل شيء، إلى الصحافة التلفزيونية عبر الإنترنت، التي لا تعرف سوى علامة واحدة لنوعية العمل: أي الراهنية. هذه تقود في الغالب إلى تشويه كبير للأحداث، كما حصل على سبيل المثال في قمة الدول الصناعية الثمانية في هايلغندام. فوسائل الإعلام يسهل توجيهها، لأنه لم يعد يوجد تمحيص للتصريحات الصحفية ومدى تطابقها مع الأحداث أو في حالة التأكد من حصول خطأ، فأن الأمر لا يعود موضع اهتمام أحد بعد أن يكون مضى على ذلك بضعة أيام، لأننا أضحينا مثقلين بنفايات الأخبار اللاحقة لتلك الأحداث. مثال ذلك التصريح الذي أدلى به المتحدث باسم الشرطة أثناء انعقاد قمة الدول الصناعية الثمانية، من أن ٤٣٠ شرطيا قد تعرضوا لإصابات في المظاهرة الكبيرة يوم السبت وأن هذا يبرر استخدام الأسلحة النارية. لكن في يوم الأثنين، طرق سمعنا وأدهشنا، أن شرطيين فقط يرقدان في المستشفى، لكننا لم نطلع على شيء من ذلك عبر وسائل الإعلام الكبيرة، التي نشرت يوم السبت تلك الأخبار في كل مكان، إنما جاء ذلك فقط على صفحات صحيفة يسارية صغيرة «يونغه فيلت». من لم يكن يقرأ تلك الصحيفة، بقي يعتقد حقا، أن كثيرا من رجال الشرطة قد جرحوا، وما زال يعتقد بذلك حتى اليوم. أما فيما يتعلق بالصورة السائدة عني: فإن هذا لا يشغلني أبدا، لأننا نعرف تماما، أن هذا الصورة لا علاقة كبيرة لها بالواقع. كما أني لا اعد نفسي مصور حرب.

ترجمة: علي أحمد محمود

كل صور كاي فيدنهوفر المنشورة في هذا العدد مأخوذة من كتاب «الجدار».

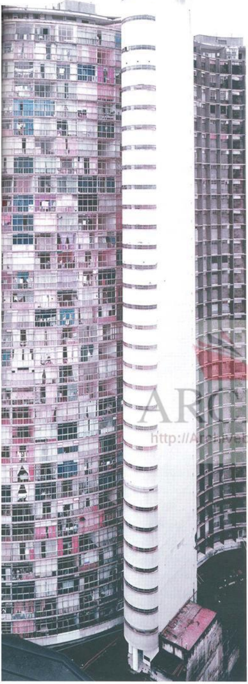
The Wall, Steidl Verlag, Göttingen, 2007

Steven Jacobs ستيفن جاكوبس

تصوير ما بعد المدينة

انحسار فوتوغرافيا الشارع وبزوغ الإثارة

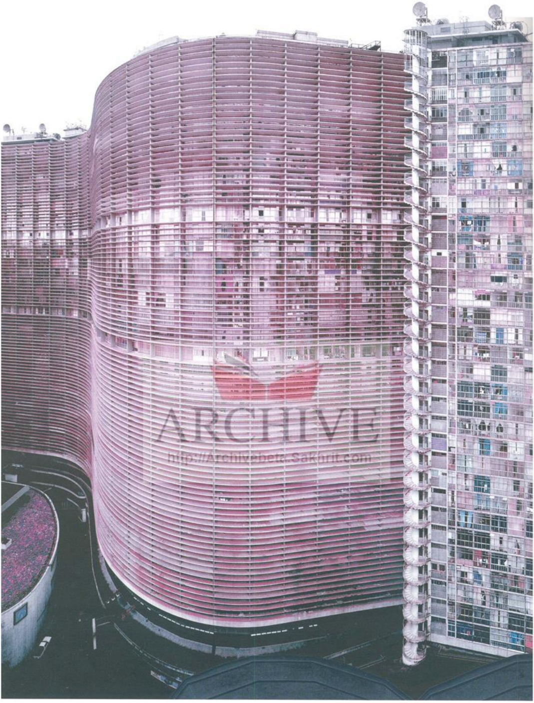
يمكن في العموم تقسيم تاريخ التصوير الفوتوغرافي للمدينة إلى توجهين. من جهة يتم تصوير المدن في إطار طوبوغرافي يعطي تفضيلا للرؤية عن بعد وللمنظر البانورامي. ومن جهة أخرى، ينضمن التصوير الفوتوغرافي المديني تقليدا يفضل تصوير حياة المدن على مستوى الشارع.



في الصور التي تنتمي للتوجه الأول يكون كامل التركيز على المباني وعلاقاتها بما يحيط بها من عمران أو طبيعة. وتبعا لهذا التقليد الذي كان يعد النموذج السائد لفوتوغرافيا المدينة في القرن التاسع عشر، لا نرصد في هذه الصور أي بشر، أو بالأحرى قد نرى قلة منهم. كان ذلك بلا شك في البداية نتيجة للقيود التقنية. رغم ذلك فقد بدأت البواعث الجمالية الفنية في وقت مبكر في إفراز كم هائل من النتاج الفني الذي يعكس تصورا فارغا ومهجورا للمدينة.

بعض هذه الصور حاول مضاهاة الوضوح في الرسوم المعمارية، وبعضها لفت الانتباه إلى العلاقة التجريدية بين الضوء والمجسمات، فيما أيقظت صور أخرى أحاسيس الرعب المهيب، أو الخوف أو العزلة المرتبطة بالمجتمع الحديث. من جانب آخر تشتمل فوتوغرافيا المدينة على تقليد يفضل تصوير حياة المدينة على مستوى الشارع. ووجد هذا التوجه ذروة التعبير عنه في فوتوغرافيا الشارع التي نشأت في أواخر القرن التاسع عشر، مع انتشار آلة التصوير «كوداك» وتطور جماليات اللقطة الفوتوغرافية. خلال القرن العشرين، كانت فوتوغرافيا الشارع مرتبطة بشكل وثيق بتقنية الكاميرا ذات الحجم الصغير ٣٥ مم والتي أتاحت مواجهة فيزيقية مباشرة بين المصور وسكان المدينة. أصبحت الكاميرا امتدادا لجسد المصور والطريقة كانت تتسم غالبا بالمواجهة. احتفت فوتوغرافيا الشارع بالتلقائية، تلقائية المصور الذي كان يلتقط أحداث الشارع، وتلقائية الأشخاص هدف الصورة وهم عادة على غير وعي بحضور المصور. وعلاوة على ذلك كان ينظر إلى الصورة باعتبارها نتاجا لصدفة فريدة وعين المصور المحترفة القادرة على الالتقاط، وهذا ما يسميه هنري كارتييه بريسون «باللحظة الحاسمة».

في منتصف القرن العشرين وفي أجواء ثقافية هيمنت عليها الفلسفة الوجودية وموسيقى الجاز والفن الحركي action painting وسينما الواقعية الجديدة والموجة الجديدة، تمخض عن فوتوغرافيا الشارع أسلوب دينامي وحاد، يتميز



Andreas Gursky: Copan, 2002, 206 x 262 cm, framed chromogenic print. Courtesy of the artist, gallery Monika Sprüth/Philomene Magers, Cologne/Munich/London and collection Lipschutz, Antwerp.

بعدم التوازن في التركيب الفني للصور ووضعها في أطر غير مألوفة، وكثيرا ما كانت الصورة تتسم بعدم الوضوح في الحركة أو بتشوش الرؤية. كانت بؤرة فوتوغرافيا الشارع مسلطة على البشر كأهداف للصورة. واحتفت بحياة الشارع

بإيمان شديد بطابعها الإنساني، أو أبرزت المجتمع المديني القاسي الذي تسيطر عليه الجريمة وضغط وإجهاد العمل والعزلة. باختصار، فإن هذا النوع الفني تكيف تكيفا تاما مع المدينة المعاصرة، التي تم تعريفها على أنها مملكة المصادفات (بودلير)، أو مكان للاستثارة المفرطة للحواس (زيمل)، أو لتحويل الخبرات المفزعة إلى خبرات داخلية ذاتية (بنيامين)، أو مملكة لثقافة الازدحام (كولهاس). وجمعه بين الحركة والرؤية، بين القرب والحياد، تكرر تعريف مصور الشارع على أنه المعادل للمتسكع flaneuer، النموذج الذي قدمه فالتر بنيامين على أنه المديني الأصلي.
ومنذ الثلاثينيات على وجه الخصوص، بعد انتشار آلة التصوير ماركة «لايكا Leica»، وحتى الستينيات كانت فوتوغرافيا الشارع هي النموذج الفني الرائد في فوتوغرافيا المدينة على جانبي الأطلسي. وخلال هذه العقود تمت عمليا إزاحة المنحى الطوبوغرافي في تصوير المدن الذي كان مهيمنا في القرن التاسع عشر، ليستخدم في أغراض ومجالات بعينها، كالدوريات المعمارية مثلا. مع ذلك فقدت فوتوغرافيا الشارع في أواخر القرن العشرين بهائها، وأصبح لدى رواد فوتوغرافيا المدينة ميل أكثر نحو المنحى الطوبوغرافي. في أواخر الستينات وأوائل السبعينات استبدل كل من الفنانين المفاهميين (دان غراهام، إدوارد روش وجون بالديساري) ومن يدعون بالطوبوغرافيين الجدد (روبرت آدامز، لويس بالتز، وستيفان شور، وآخرين) رد الفعل التلقائي على الصدفة المدينية وكثافة مناطق أواسط المدن بالانسحاب المحايد نحو أطراف المدينة.

ومما لا شك فيه أن ذلك كان نتيجة لتغير حاد في طبيعة المدينة. أولا لم يعد هناك وجود للمدن الكبيرة الحديثة التي اعتاد فوتوغرافيو الشارع على تصويرها لعقود. عمران الضواحي الذي نشأ ما بعد الحرب العالمية الثانية نشأ في بيئة ما بعد المدينة التي تلاشت فيها إلى حد كبير الفروق بين وسط المدينة والضاحية ومناطق الأطراف والريف. الازدحام المتنوع لأواسط المدن، كما يحتفى به في صور فوتوغرافي الشارع مثل ويجي Weegee أو ليزيت مودل Lisette Model أو روبرت فرانك أو ويليام كلاين، تم استبداله بالكثافة المنخفضة للامتداد العمراني. وتبعا لذلك بدأت تقاليد فوتوغرافيا المدينة وتقاليد فوتوغرافيا الطبيعة تؤثر على بعضها البعض بشكل متزايد. والآن تكفي نظرة سريعة على هذه الصور، لإيضاح أن المشاهد الطبيعية التي تناولوها، لا تتشابه إلا بقدر ضئيل جدا مع فوتوغرافيا الطبيعة التقليدية ذات الطابع السامي النقي. فبدلا من الهروب من المدينة في الأزمات والبحث عن الخلاص في الطبيعة العذراء، كان هؤلاء الفنانون والمصورون الفوتوغرافيون مبهورين بالحدود المائعة وغير المنتظمة بين المدينة والريف. تتسق المناظر التي يصورونها مع التوسع الأفقي غير المركزي الجديد للمشهد المديني، والذي يسميه منظرو العمران، عمران ما بعد الضواحي Postsuburbia.
إذاً، إلى حد ما يسير تاريخ فوتوغرافيا المدينة بالتوازي مع تاريخ التخطيط المديني، الذي تحول عن نموذج الحاضرة المركزية المتمثلة في نيويورك إلى نموذج التوسع العمراني الأفقي على غرار لوس أنجلوس وهيوستن، وأتلانتا أو لاس فيغاس. تحولت نظرة كبار الفنانين المفاهميين والطوبوغرافيين الجدد جغرافياً مع استبدال قلب المدينة بمشهد عمراني يمثل نموذجا لحالة المدينة في أواخر القرن العشرين: لوس أنجلوس كنموذج لمتروبول الضواحي، سلسلة من البيوت المتشابهة البناء بحيث لا يمكن التمييز بينها، ضواح عمومية، أراض مقفرة كئيبة، مجمعات للمكاتب تتسم ببهاء المنظر، أماكن غير قابلة للوصف في مناطق الأطراف، واللا أمكنة في المدينة العالمية.
هذه التغيرات في فضاءات المدينة تجسدت في الأسلوب المهيمن على فوتوغرافيا الحضر. في تصويرهم وتفسيراتهم للأطراف المدينية الجديدة، تحول الأسلوب الحاد لفوتوغرافيا الشارع، إلى المنحى الطوبوغرافي، الذي كثيرا ما يذكر بتصوير الحضر والمشاهد الطبيعية في القرن التاسع عشر. عندما أفسحت مناطق وسط المدينة المجال لمناطق الأطراف، واستُبدلت حياة الشارع ذات الحركة المحمومة والكثافة بالفراغ والانفتاح: حلت الكاميرات ذات الحجم الكبير محل تلك ذات الحجم الصغير، واستبدل القرب المكاني بالمسافة والحياد، وحل التأطير المحسوب للصورة محل تلقائية التقاطها، وحل البطء محل السرعة، والجماليات الباردة محل تلك الساخنة، وحل التكرار والقابلية للتغيير داخل ذات المشهد، محل اللحظة الحاسمة والصدفة الفريدة.
يضاف إلى ذلك أن عدة تغييرات اجتماعية في مراكز المدن كانت أيضا وراء انحسار فوتوغرافيا الشارع. فقد أدت عملية نشأة الضواحي Suburbanization أو (هجر المدينة disurbanization) إلى محو الفضاء العام في مراكز المدن، وهي أماكن الالتقاط المُثلى لفوتوغرافيّ الشارع. حل الطريق السريع المفتوح محل الشارع، وتحول المتسكع إلى سائق. علاوة على ذلك فإن المتروبول من خلال الغيتوهات والأحياء المخصصة فقط للعمل المكتبي والمناطق السكنية التي تسكنها الطبقات العليا فقط ومراكز التسوق والملاهي والمعالم السياحية، وتحول الشوارع إلى مجرد ممرات مرورية، لم تعد في نهاية القرن العشرين قادرة على استيعاب أي نوع من التمركز المديني civitas.
سواء في احتفالها بحياة الجيرة أو تقديرها للإيقاع المحموم لقلب المدينة، كانت فوتوغرافيا الشارع مرتبطة ارتباطا وثيقا بفكرة مجتمع المدينة الكبيرة، وعلى وجه الخصوص في تلك

المرحلة الفنية التي سميت بالمرحلة الإنسانية قبيل الحرب العالمية الثانية وبعدها. ورغم أن المدينة الحديثة كانت هي مفرخة التشظي الاجتماعي وعملية الفردنة، فإن المثقفين والفنانين قدموا المدينة على أنها الفضاء الخاص الذي يعكس التفاعل المتنوع والوحدة بين مكوناته. انجذبت فوتوغرافيا الشارع إلى مفهوم المدينة باعتبارها فضاءً ديمقراطيا. لكن خلال العقود الأخيرة جرت بشكل متزايد خصخصة للفضاءات العامة و/أو تحولت إلى ملاه ترفيهية. إضافة إلى ذلك تساءل منظرون كبروس روبنز Bruce Robbins وروزالين دويتشه Rosalyn Deutsche عن الوجود التاريخي للفضاء العام وعن مفهوم الفضاء العام في حد ذاته. ثم إن تنامي تنوع سكان المدينة الكبيرة وظهور ما يعرف بالمجتمع المتعدد الثقافات وتطور سياسة الهوية وتنامي أهمية ما يعرف بالثقافات الفرعية والجماعات المتكافئة قلل من أهمية التعريف التقليدي للجماعة المدنية، وللفضاء العام. لم يعد آخر ممثلي التقليد العظيم لفوتوغرافيا الشارع (وينوغراند، أرباس، دافيدسون، وكلارك وغولدين)، لم يعودوا يتعاملون مع المدينة باعتبارها "مدينة ذات مركز Polis، بل باعتبارها أرضا لاقتناص تفاصيل ملونة. خلال عرضه لصورة نيويورك في فوتوغرافيا القرن العشرين أكد ماكس كوزلوف Max Kozloff أنه في السبعينات" تم استبدال الصورة الأيقونية السابقة عن حي مانهاتن المليء بالمحلات، بصور أكثر محلية عن ذي قبل أو صور ذات طابع شخصي لم تعد تمثل أي تفكير في المدينة ككل. .. لم يعد هناك مركز مدينة Polis، أصبح ينظر إلى المدينة باعتبارها أرضا لاقتناص حوادث صغيرة يمكن في أي لحظة أن تعبر عن القسوة أو السفاهة أو الحمق المرتجل للحياة.

وقد تصادف أيضا حدوث التحول النموذجي في فوتوغرافيا المدينة من فوتوغرافيا الشارع إلى الاهتمام من جديد بالمنحى الطوبوغرافي مع التغيرات الحاسمة في الفوتوغرافيا نفسها والتحولات الشديدة في سياقها الاجتماعي والثقافي. من جانب آخر، فإن الستينات شهدت انحسار فوتوغرافيا الصحافة مع مجيء التلفزيون ليحل محل الصحافة المصورة، كأهم وسيلة لنشر المعلومات. من ناحية أخرى نجحت الفوتوغرافيا دون التخلي عن تطلعاتها التوثيقية لصالح تجارب شكلية أو استكشافات ذاتية، في المنافسة على التواجد في المعارض والمتاحف. ثم إنه مع نهاية الستينات شهدت قدرة المواطن العادي على إنتاج الصورة طفرة كمية، مع ظهور مجموعة من الابتكارات التقنية مثل الأفلام الجديدة ذات السرعة الأعلى، وأفلام بولارايد الملونة التي جعلت عملية التقاط الصورة وإنتاجها تتم في خطوة واحدة، وإمكانية طباعة الصور لدى مستودعات العقاقير، وأنواع آلات التصوير الجديدة. وقد تكثف ذلك بالطبع مع ظهور كاميرات الفيديو ومنذ بداية الثمانينات فصاعدا ظهور آلات التصوير الرقمية وتطوير تقنيات المعالجة التقنية للصورة. ولم تفرز عملية «الرقمنة» مجموعة من التغيرات المعقدة والمتناقضة أحيانا في إنتاج وتوزيع واستقبال الصور الفوتوغرافية فحسب، بل أفرزت أيضا فهما مغايرا للصور الثابتة في حد ذاتها. تحدث النقاد في التسعينات عن عصر ما بعد الفوتوغرافيا، الذي تغيرت فيه العلاقة بين الصورة وموضوعها تغيرا تاما. وإضافة إلى ذلك كثر الحديث عن الفوتوغرافيا وانتشار الصور الفوتوغرافية ضمن نقاشات تعتبر جوهرية بالنسبة لوضعية ما بعد الحداثة: تكوين الهوية من خلال الصور، رأسمالية المستهلك، واعتمادها على الصورة وخلق الجماليات، وتقديس الصور الزائفة، وعولمة وسائل الإعلام إلخ.

وجدت هذه النقاشات ما يعبر عنها في فوتوغرافيا نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين. من ناحية لم يعد المصورون الفوتوغرافيون يؤمنون بالمواجهة المباشرة والتلقائية مع العالم المديني، التي كان فوتوغرافيو الشارع يحتفون بها ويبرزونها، ومن ناحية أخرى فإن المصورين الفوتوغرافيين المعاصرين لا يكتفون فقط بالتعليق بصورهم على التغيرات في المشهد المديني، بل يعلقون أيضا على الفوتوغرافيا ذاتها، وكذلك على قيمها التوثيقية والتعبيرية أيضا. التوجه الخالي من التعبير والميل إلى الرتابة والتكرار في صور الفنانين المفاهميين والطوبوغرافيين الجدد، بيرنت وهيلا بيشر Bernd & Hilla Becher والأعمال الأولى لتوماس ستروث Thomas Struth وتوماس راف Thomas Ruff هي الإجابة المتقنة على تحلل المشهد ما بعد المديني. لكن صورهم أنتجت في المقام الأول شيئا يشبه تصورا غير واضح المعالم عن الاستنساخ الآلي، الذي يقلص في حد ذاته العرض المحاكي ليجعله مفهوما تأمليا. الطابع غير المحدد والعشوائي للمشهد المديني بشكل عام في صور هؤلاء الفنانين يسير جنبا إلى جنب مع الأسلوب والخطوات الفوتوغرافية التي يحاولون تطويرها وتحديدها بشكل يتميز بقدر عال من التأمل الذاتي.

تنتمي الصور الفوتوغرافية التي يشتمل عليها معرض «المدينة المثيرة Spectacular City» إلى الموضة الطوبوغرافية التي نشأت في أعمال الطوبوغرافيين الجدد وتلاميذ بيشر في السبعينات. معظم الصور تظهر المشاهد المعاصرة لفترة ما بعد المدينة، التي تغزو فيها الأشكال والوظائف المتروبوليتانية مناطق الأطراف التي لم تتحدد معالمها بعد. وبدلا من التركيز على مراكز المدن بطابعها المحموم، وعلى الآثار الشهيرة والأحياء التاريخية، يفضل مصورو المدن المعاصرين عادة الفضاءات العمومية التي يمكن أن تشهد تغيرا داخليا في أطراف المدينة. ويتضمن موضوع هذه

الصور في المقام الأول، أبراج المكاتب المعتادة وبيوت الضواحي وأماكن صف السيارات ومواقع الإنشاء ومرافق طرق مجهولة، وكلها تشكل المشهد العمراني في عصرنا.

ورغم أن هذه المباني والأماكن تبدو مملة وغير مثيرة، فإنها غالبا ما تُقدم بأساليب مثيرة وملفتة بدرجة كبيرة - على الأقل أكثر إثارة من الصور المعقدة والباردة الخالية من التعبير لأبراج بيشر أو تجمعات الضواحي السكنية التي صورها آدامز أو شوارع المدينة الصغيرة التي صورها شور Shor أو مجمعات المكاتب لبالتز Baltz في السبعينات. ويبدو أن الصور البانورامية المطبوعة بمقاس كبير لكل من بالتزار بوركهارد وأندرياس غورسكي وأغلايا كونراد وأبولونيا مولر وناوايا هاتاكاياما، توقظ إحساسا بالسمو ما بعد المديني الذي يجسد الحالة المتروبوليتانية في عصر العولمة. وحتى عندما يعيد الفنانون بتركيزهم على الأنماط الهندسية والأشكال المعمارية المتكررة إلى الأذهان الأسلوب المتقشف لسابقيهم في السبعينات، فإن أعمال ستيفان كورتوريه وأندرياس غيفلر وألغايا كونراد وتاجي ماتسويه وباس برينسن وهايدي شبيكر من بين آخرين، تقدم في أغلب الأحيان الحالة المدينية المعاصرة بوصفها عالما مثيرا مليئا بالأشكال والهياكل المعمارية والبنى التحتية والعلامات. إن تركيزهم على الأنماط الشكلية يؤكد القواعد المنطقية لما أسماه كولهاس المدينة العمومية generic city، انتشار واسع على مستوى العالم لنفس الحالة المدينية التي تصبح عناصرها قابلة للتغيير فيما بينها.

مع ذلك ففي الوقت ذاته، تبين صور هؤلاء الفنانين أن هذه العناصر يمكن أن تفضي إلى توليفات جميلة ومرحة ومفاجئة وربما مبهرة، تعرض للمدينة المعاصرة بوصفها مكانا مشوقا ومحفوفا بالمخاطر. توقظ كثير من الصور في معرض المدينة المثيرة الإحساس بالفوضى الجذابة للمتناقضات والكسور التي تميز المباني والحياة في المدن لعدة قرون. الصور الأخيرة لتوماس ستراث وفرانشيسكو جودايس على وجه الخصوص تظهر المدينة كمملكة من المتناقضات الملونة بين الصغير والكبير بين القديم والجديد، بين المباني والبنى التحتية، بين الطبيعة والثقافة.

الطابع الاستعراضي لبيئتنا المعمارية المعاصرة كثيرا ما يعبر عنه ويتم التشديد عليه من خلال ما يسمى بالرؤى أو الأشكال أو البُنى أو الخطوات ما بعد الفوتوغرافية. يؤكد العديد من مصوري المدينة على أنه لم يعد ممكنا وجود علاقة محاكاة مباشرة وقاطعة مع الواقع المديني وجها لوجه. والملفت للانتباه أن الكثير من الفنانين يتماشون مع الطابع المصطنع لبيئة ما بعد المدينة من خلال إبرازهم للجانب المصطنع في صورهم. وهم بذلك يردون بإيجابية على دعوة مارثا روزلر إلى "صور يظهر فيها أثر التلاعب، ليس كشكل من أشكال التأمل الفني ولكن من أجل وضع نقطة أكبر فيما يخص القيمة الحقيقية للصور والعناصر الوهمية لسطح (وحتى لتعريف) الواقع".

هذه الصور المصطنعة يمكن أن تكون نتيجة لمعالجة إلكترونية مرهفة أو واضحة بصورة ملفتة، مثلما في أعمال فينشينزو كاستيلا أو أندرياس غيفلر أو جول سبيناتش. وعلى النقيض هناك فنانون يركزون على الاصطناع في صورهم وفي موضوعات صورهم بالاستعانة أكثر بوسائل فوتوغرافية، مثل استخدام ظروف إضاءة ملحوظة (فرانك فان دير سَلم، وتوماس راف وتود هيدو)، أو التصوير خلال فترات زمنية متتالية (مايكل ويسلي)، أو استخدام نظام لتعديل المنظور بشكل غير معتاد (أوليفو باربيري). ولا يزال هناك فنانون يصورون مشاهدهم المدينية بالاستعانة بنماذج طائرات صغيرة (توماس ديماند، وإدوين تسواكمان). مع تخيل المدينة المثيرة تُعرض الفضاءات والهياكل المصطنعة بوصفها حقيقية في حين تفسر الفضاءات الحقيقية على أنها نتيجة لعمليات تجهيز المشهد واستراتيجيات التستر والإخفاء. تحول المشهد المديني المعاصر إلى عالم مكشوف يتألف من النماذج المصغرة والأسطح اللامعة وتقنيات الضوء التي تشير إلى الحالة البصرية لكل من التسلية والمراقبة، التي تحكم البيئة المدينية بشكل غير مرئي. ولا شك أن هذا "التفكيك" للغة البصرية للمدينة وفوتوغرافيتها يمكن أن يفسر باعتباره وقفة تأمل ذاتي، غالبا ما تكون نتيجة لرغبة أملتها الحداثة من أجل اختبار الوسيلة الفوتوغرافية، ولتجارب ما بعد حداثية تخلط وسائل مختلفة. رغم ذلك فإن ما يثير الميل إلى ما هو مصطنع هو بالتأكيد تزايد انتشار الصور وممارسات الظهور والاستعراض لدى صانعي السياسات في المدينة.

في عصر تسويق المدينة الذي يعتمد بشكل كبير على الصور المدينية ذات الطابع التجاري، يرغم مصورو المدينة المعاصرون على اتخاذ موقف واع بالذات وجها لوجه مع وسيلتهم والوظيفة التي تؤديها. إن امتناع هؤلاء المصورين عن تصوير المدينة بوسائل التصوير المحض يعود إلى تعقد المشهد المديني المعاصر، وهذا المشهد هو بلا شك يزداد اصطناعا ويحاكي أو يتحول إلى صور من خلال عمليات رقي الأحياء وزيادة قيمتها العقارية وانتشار المراكز التجارية ومن خلال السياحة.

ترجمه عن الإنجليزية: أحمد فاروق

ستيفن جاكوبس: مؤرخ وناقد فني يهتم بالتصوير الفوتوغرافي.

من كتالوغ معرض:
The spectacular City. Photographing the future. NAI Publischers, Rotterdam.



أطفال فلسطينيون يتسلقون الجدار
أكتوبر ٢٠٠٣

Photo: Kai Wiedenhöfer, from his book Wall, published by Steidl Verlag (Göttingen 2007).

آرون بيتسكي Aaron Betsky

المدينة الحديثة كيوتوبيا

أسطورة التصوير المبهر

في مكان ما في الخارج يبزغ عالم جديد، يلوح على البعد كجمع من الخيالات الغامضة، فسيح لدرجة الاستغلاق، بعيد لدرجة الالتباس، شديد التعقيد لدرجة الامتناع. عالم يوجد فقط على هيئة صورة أو سراب.

لقد كانت العمارة دوما ممزقة بين الممارسة اليومية المبتذلة المتعلقة بتشييد بنايات لصالح الذين يملكون المال والسلطة اللازمة لتكليف غيرهم بهذا البناء، وبين الرغبة في بناء عالم مثالي. وقد عبرت العمارة عن شعورها بتأنيب الضمير من خلال مخططات يوتوبية تتسلل إلى خبراتنا ككل تلك الأشكال والفضاءات التي تجعلنا مدركين لوجود شيء مختلف، شيء أكبر وأكثر جمالا من البناء المضجر الذي يضمنا. ومن أجل إنجاز نسخة حقيقية من اليوتوبيا لجأ المعماريون إلى نتاج سلسلة من الفنانين الذين نجحوا في تحقيق أحلامهم على نحو أكمل: كتاب القصص اليوتوبية، رسامو العوالم الخيالية، صانعو أفلام الخيال العلمي، واليوم المصورون الفوتوغرافيون.

ومن المثير للسخرية أن أحدث موجات التصوير اليوتوبي خارج العمارة وُلدت من الرغبة في توثيق الواقع حولنا بأكبر دقة ممكنة. فقد مهدت الطريقة التي طورها بيرند وهيلا بيشر Bernd and Hilla Becher والمتعلقة بدراسة أنماط معينة من البنايات في فترة الستينيات، وهي الطريقة المستلهمة من أوغوست زاندر، مهدت الطريق أمام أجيال عديدة من المصورين الفوتوغرافيين لكي ينظروا طويلا ويتمعنوا في المدن التي يقطنوها. وعندما لم يرُق لهم ما صوروه بدأوا في تفريغ صورهم. لقد سطحوا الصور وصقلوها وعالجوها مستخدمين العديد من التقنيات لكي يخلقوا واقعا لا وجود له. ووجدوا على سطح الصورة الفوتوغرافية وفي سطحية الحياة اليومية نوعا من اليوتوبيا.

في الوقت نفسه استأنف مصورون آخرون تقليد صور الرحلات ورصدوا بزوغ المدن الجديدة التي تنهض في الأماكن المهجورة، وأخذوا يوثقون قصور الهواء الحقيقية تلك بدقة مذهلة تناسب المجلات البراقة، أو يصهرونها معا لتكون نحتا للواقع على شكل أطنان من صور الأبيض والأسود. هم أيضا عثروا على إمكانية خلق عالم آخر ممثلةً في لمعان الصور المطبوعة وفي الفخر بما أبصروه حولهم.

"إمكانية اليوتوبيا أصبحت مستبعدة"، ذلك ما قاله المعماري والناقد الدو روسي ذات مرة. إننا لا نستطيع الاستمرار في الإيمان بحلم بناء عالم مثالي، لأننا رأينا ما أسفرت عنه مثل هذه الرؤى من نتائج شمولية وتعلمنا أننا نبقى دما ولحما حتى في الفضاء الخارجي. عمارة المستقبل بالنسبة لنا اليوم هي رؤية كابوسية لنقيض اليوتوبيا أكثر من كونها حلما بعالم مثالي. كذلك تقدم لنا صورها عالما يبدو مخيفا ويجدر تجنبه. مصورو اليوم يتمسكون بزعم توثيق ما هو موجود باستخدام التقنية، حتى ولو عالجوا صورهم أو حتى خلقوا العالم الذي يوثقونه في استوديوهاتهم. وبفضل زعمهم بأنهم يعرضون عوضا عن كونهم يخلقون فإنهم يمنحوننا اليوتوبيا ونقيضها معا، وكلاهما كامن في واقع يومنا الحاضر. بالنسبة لهؤلاء الفنانين فالأمر لا يتعلق بخلق الواقع والحلم بشيء مختلف، وإنما برؤية العالم الآخر في عالمنا.

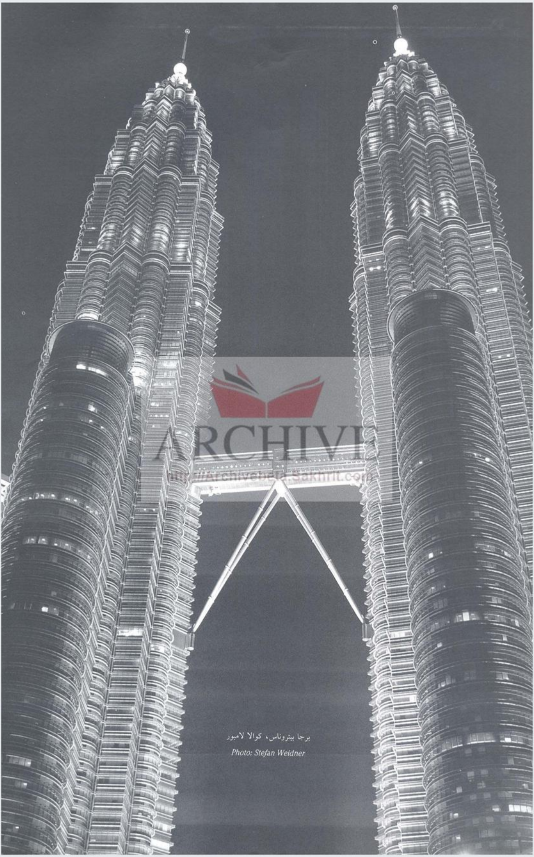
هذا هو الدرس الذي ينبغي علينا تعلمه من تلك الأعمال القائمة على الإبهار spectacular. إنه خلق اسطورة عن واقعنا العمراني الحديث. الأسطورة هي في النهاية ليست بالضرورة حقيقة أو خيال. إنها إعادة حكي بصري مؤثر لعالم قد يكون وجد من قبل، أو سيكون موجودا في المستقبل، أو ربما هو حولنا اليوم في انتظار أن يجعلنا الفنان ندركه. هؤلاء الفنانون يجعلوننا نرى إبهار العمران كأسطورة حياة عاشت في بيئة عمرانية متغيرة ومعولمة. إنهم يقدمون عمارة قائمة على الإبهار، عمارة من الممكن أننا لم نرها بعد، لكن الصور تعرضها أمامنا بكامل هيبتها. إنهم في الحقيقة لا يبنون وإنما يصورون المستقبل.

ترجمه عن الإنجليزية: هيثم الورداني

من كتالوغ معرض:

The spectacular City. Photographing the future.

NAI Publischers, Rotterdam.



برجا بيتروناس، كوالا لامبور

Photo: Stefan Weidner

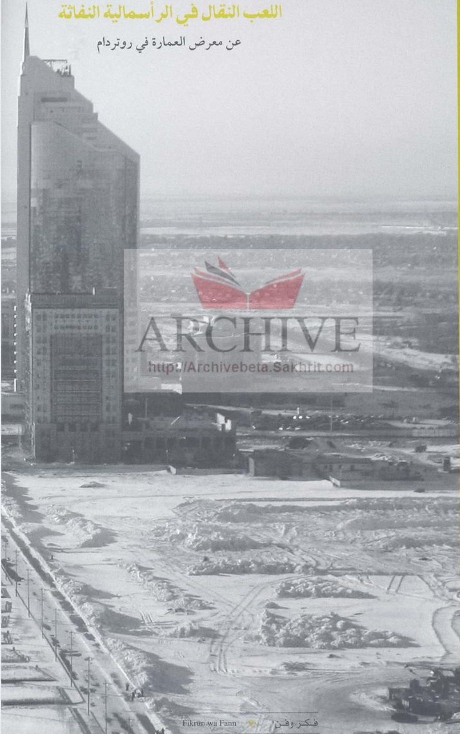
كتب

Daniel Bartetzko

دانييل بارتيتسكو

اللعب النقال في الرأسمالية النفاثة

عن معرض العمارة في روتردام



Fikrun wa Fann فكر وفن

شدت المدن الكبرى، سيان كيفما اصطلحنا على المفهوم، الجماهير منذ الأزل، سواء بسبب قربها من أصحاب السلطة أو بسبب حضارة العاصمة، سواء بسبب الإغراء الذي يقدمه مركز الأمة أو بسبب الآمال بحياة أفضل. ومع بداية العصر الصناعي على أبعد تقدير، تسارعت هذه الظاهرة عدة أضعاف، فالمدينة تعني بالدرجة الأولى الرجاء الأكبر في العمل. خلال ٤٠ عاما في أقصى تقدير سيقطن ثلثا سكان الأرض في المدن. كيف ستتطور مدينة المستقبل ومن سيبنيها؟ تحت عنوان «قوة البصيرة» أخذ معرض روتردام - النظير الفكري للمعرض الفاخر في مدينة البندقية - على عاتقه مهمة التعرض لهذه الإشكالية. ما يشاهد من خلال العمارات الافتراضية لعصر ما بعد الحداثة في معهد العمارة الهولندي NAI وفي صالة الفنون في روتردام، ليست فقط نتائج الأبحاث، بل إنه أيضا نسخة للأسلوب الآني، المتولد عن الكمبيوتر، للخوض في الموضوع، مقترنة بين الحين والآخر مع طوفان هادف من الإغراءات وبمزج لفروع فن العمارة، نابع من ثقافة البوب. إنه معرض مهم، إلا أنه بالنتيجة يفتقر إلى عنصر المفاجأة.

في المعرض الرئيسي في صالة الفنون، تعرض مكاتب هندسية منتخبة رؤاها لعمارة المدن، منسقة في كبائن دائرية مُنجّرة من عوارض خشبية، رشيقة لكن فظة تناور ببراعة بين ناطحات السحاب وبراكات الفقراء. إلا أنه لا جديد فيما يعرض أمام أعيننا. فبجوار النظريات المدعومة بكثير من لوحات الغرافيك الفاقعة نرى صورا مفزعة للامبالاة الرأسمالية: من البنايات الحديثة البهية، المتمسكة بالطراز المعماري



أستانا، كازاخستان
From the exhibition:
3rd International Architecture Biennale Rotterdam

الستاليني، في عاصمة كازاخستان الجديدة آستانا أو إزاحة السكان الفقراء في الأحياء الهامشية ومدن الصفيح في ريو دي جانيرو.

يرى بعض المعماريين في النمو المتسرطن للمدينة نهاية الهندسة المعمارية كوسيلة تنظيمية. آخرون يعلنون بجسارة إن اعتبار بعض المدن مثل اينسبورغ ضمن التراث العالمي يقف حاجزا في وجه تطويرها. وإضافة إلى هذا تتوافر مشاريع لا يرجو المشاهد إلا أن يكون هدفها المزاح. فالموديل النظري لمستوطنة قرب مدينة سبتة المغربية يحبط زائر المعرض. قدم مكتب هولندي نموذج مبنى مربع على شكل جدران بطول ٥٠٠ م، يخفي في داخله فراغا هائلا. يمكّن هذا المبنى من توارد كل تاريخ فظ على في الخاطر، كجدار برلين ومباني النازية على غرار برورا[١]، إنها لطوابير خيالية الأبعاد وقبل كل شيئ فهي سجن كبير. وفي هذا المشروع تحديدا يفترض أن نرى مخيما للاجئين.

من الجلي أن موضوع العولمة المعاد والمكرر معقد جدا على أن نتوقع محاولات جديدة جادة لمعالجته. على



العكس. ففي هذا المعرض، ودون قصد من القائمين عليه، يتجلى إشراق لا يبشر بمستقبل جميل حافل بكثير من الآمال: المدن ستواصل تضخمها الاعتباطي. وهذا التضخم تعبير عن إرادة البقاء لدى اولئك الذين يحدوهم الأمل في العمل في المدينة.

إلا أن مدينة المستقبل، هذا ما برهن عليه تاريخ المدينة دائما، تحددها أيضا الشروط الاقتصادية. بهذا المعنى ليس معرض العمارة في روتردام المكان الملائم كي يخرج المراقب بالانطباع أن المرء هنا بصدد أن يتساءل فقط ناقدا عن الدورة التي يبلغ عمرها آلاف السنين وذلك في ظروف الرأسمالية النفاثة.

يمكن استنباط ثورة صغيرة على العلاقات القائمة في معرض «عالم أفضل». فهذا يطالب بمبان للمحتاجين ونازحي الحروب ويعرض في NAI بعض المشاريع لسكن ملائم. هنا على المرء أن يشق طريقه عبر العرض المزخرف والذي عمد لأن يكون تلقائيا.

بعض الصور تظهر ألعابا بلاستيكية نشطة أثناء العمل. وهذا أكثر موتيفات المعرض إيحاء: مرحين، نشطين ودون كلل أو ملل يعمل الرجال البلاستيكيون، المبتسمون دائما، ضد نظام عنيف ويشيدون مأوى إنسانيا لأجل ضعفاء المجتمع. هذه رومانسية اجتماعية بحتة، مع ذلك نحتاج إلى وجبة كبيرة من هذه الرومانسية تحديدا، كي نصل بسرعة إلى نتيجة واقعية. سيان بصورة إعلانية أم لا، هنا يمكن الخلوص إلى آثار سريعة وبسيطة.

يعرفنا معرض le-corbusier لمعهد NAI على أحد الآباء غير الطوعيين للمدينة النفاثة. بعد عشرين عاما على آخر المعارض العظيمة يتم تكريم أشهر فناني العمارة الأوروبيين لعصر الحداثة الكلاسيكية تكريما شاملا جديرا به.



بين أعداد لا حصر لها من الصور، المخططات، الأفلام، النماذج وقطع الأثاث، يقف خفيا النموذج الأساسي للبناء على طراز حجارة الدومينو الذي ابتكره: الأرضيات الأسمنتية المرفوعة على أعمدة حديدية، التي تمكّن البناء المسطح من المخزن إلى ناطحات السحاب. علبة ألعاب تخفي احتمالات لانهائية. بينها تعليب البشر.

ترجمة: كاميران حوج

دانيل بارتيتسكو محرر قسم العمارة في صحيفة فرانكفورتر روندشاو.

١ مشروع منتجع عملاق سعى النازيون إلى بنائه خلال ١٩٣٥ و١٩٣٩، ليستوعب حوالي ٢٠ ألف سائح على جزيرة رويغن، وتوقف العمل فيه مع بدء الحرب العالمية الثانية.

بيروت

From the exhibition: 3rd International Architecture Biennale Rotterdam



ماتياس بيكر

Matthias Becker

مدن القش والبلاستيك

عن كتاب كوكب أحياء الفقراء لـ «مايك ديفيز»

منذ عهد قريب، لم يعد الناس يعيشون في القرى إنما في المدن، ما يعتبره مايك ديفيز انقلابا مهما في تاريخ البشرية، يمكن مقارنته بالانقلاب النيوليتي أو الثورة الصناعية. يبدأ المؤرخ الأمريكي بتوصيف جاف «للانقلاب الكوني».

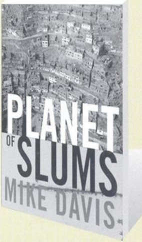
سيكون على مدن العولمة في الجنوب أن تستوعب النسبة الأعظم من النمو السكاني المتوقع وهذا نمو لا مثيل له في التاريخ. يشير ديفيز إلى أن سكان لندن تكاثروا بين ١٨٠٠-١٩١٠ سبعة أضعاف: "لكن داكا، كينشاسا ولاغوس اليوم أكبر بحوالي ٤٠ ضعفا مما كانت عليه عام ١٩٥٠".

٣٢ بالمائة من سكان المدن، أي حوالي مليار إنسان، يعيشون في الأحياء الفقيرة. مدن الصفيح على أطراف ريودي جانيرو واسطنبول أو في مراكز المدن المهجورة في جميع أنحاء العالم تنمو أسرع بكثير مما تنمو المدن عامة، بمقدار ٢٥ مليون ولادة جديدة ومهاجر في السنة حسب بعض التوقعات.

هذه الأرقام تدوّخ القارئ. لكن ديفيز لا يريد أن يضع أمام أعيننا صورة نظرية للقيامة أو لوحة مستقبلية معقدة، إنما يسعى ليبرهن لنا على الانفصام الشديد بين النمو الاقتصادي والشأن الكوني.

باستثناء الصين وكوريا الجنوبية وتايوان تتسرطن المدن أيضا في بلدان تعاني من ركود دخل الفرد أو حتى تراجعه. يتساءل ديفيز: "كيف ستتحمل المدن في ساحل العاج، في الكونغو، الغابون، انغولا أو أي مكان آخر، حيث يتضاءل الاقتصاد بمقدار ٢ إلى ٤ بالمائة سنويا، نموا سكانيا بين ٤ إلى ٨ بالمائة في السنة؟" ويجيب على السؤال: أدت أزمة الديون في الثمانينات وبرامج التكيف الهيكلي المفروضة من صندوق النقد الدولي والبنك الدولي والمكرسة بمزيد من الحروب الأهلية وكوارث الجفاف، إلى «أزمة زراعية عالمية» ولم تترك لسكان الأرياف إلا خيارين لا ثالث لهما، إما الفقر المدقع أوالهجرة.

"لن تبنى مدن المستقبل من الزجاج والفولاذ إلا نادرا، إنما ستبنى من الحجارة و القش، من البلاستيك المكرر أو كتل الأسمنت والخشب المستهلك". يكتب ديفيز عن الحياة والإفلات من الموت في أحياء الفقراء والعلاقات المشوهة بين المركز المديني والقرية، كما يكتب عن «بيئة الأحياء



الفقيرة والهامشية» ويطرح أسئلة ملحة، بقدر ما هي بسيطة، مثل ما معنى أن يعيش آلاف البشر على رقعة ضيقة دون أن تكون لديهم مرافق صحية؟

أطفال الساحرات ورجال الأقفاص

يقوم البعض بردود فعل مخاطرة ذات طابع ارتجالي على انعدام البنية التحتية أو ضعفها، على تلوث البيئة والازدحام. على سبيل المثال، ما يطلق عليهم اسم رجال الأقفاص في هونغ كونغ، الذين يغطون مواضع نومهم بالشبك كي يحصنوها ضد السرقة. وهذه الأمكنة مخالفات سكنية على سطح بناية مثلا أو في المنور. لكن المرعب حقا هو ما يسرده ديفيز عن «أطفال الساحرات في كينشاسا»، فهنا دمرت الكارثة الكونية حتى التكافل العائلي. فالبدعة الجديدة تقدم للأهل عذرا للتخلص من أطفالهم الذين لا يقدرون على إعالتهم، بحجة أنهم مسحورين. بمثل هذه الروايات الواقعية يدلنا ديفيز على ثنايا بانوراما الفقر المديني وعلى الطريق إلى هنالك يكشف لنا الكثير من الخرافات.

خرافات التنظيم الذاتي

برأي ديفيز، يجسد عالم الاقتصاد هرناندو دي سوتو منطلق المنحى العام لتخطيط المدن وسياسات التطوير في يومنا هذا. مفاد وصفة دي سوتو هو باختصار، مكافحة الفقر بأن تقونن الدولة مستوطنات سكان الأحياء الفقيرة وتملكهم العقارات. وبذلك يصبح القطاع المخالف في أحياء الفقراء تحديدا أساسا للاقتصاد ويصير الباعة الجوالون ومساحو الأحذية أصحاب شركات مستقلين. ينتقد مايك ديفيز نهج التفكير هذا ويقول إن المشكلة تغدو ببساطة حلا، ومع "التنظيم الذاتي للأحياء الفقيرة" يتم الاعتراف بالأمر الواقع.

فبالنسبة له لا يشكل فقراء المدن مشاريع أصحاب شركات بل إن استراتيجيتهم للاستمرار ترتكز على «التقسيم»، على مداومة توزيع الموارد الضعيفة أصلا بمنأى عن ابتكار القيم. ينتمي مليار إنسان إلى حلقة "طبقة العمال العالمية المخالفة" هذه. وبانعزال أغلبهم عن الإنتاج لا يشكلون في النهاية إلا "سكان فائضين" وفي أفضل الأحوال مشكلة لاستراتيجيي العسكرتاريا، الذين يعانون منذ اليوم قلقا حقيقيا من الأحياء الفقيرة والهامشية هذه.

كتاب كوكب أحياء الفقراء ليس تحليلا بنيويا مملا، بل قمة في الكتابة السياسية تدعو إلى الجدال. قيّم ديفيز كمّا لا يحصى من الدراسات والإحصاءات والبيانات ويربط بين المستويين الميكرو والماكرو، ليصل إلى فرضية عظيمة تطرح بإصرار وخبرة، ولو على شكل حكايات في بعض الأحيان، السؤال الحاسم: ما هو مستقبل البشرية على كوكب أحياء الفقراء؟

سيضطر للجواب على هذا السؤال أيضا أولئك الذين لا يسكنون في تلك الأحياء.

ترجمة: كاميران حوج

عن صحيفة فرانكفورتر روند شاو، ٢٠٠٧/٣/٢٨

شتيفان فايدنر
Stefan Weidner

موسوعة الجذاذات

قراءة في موسوعة الحب في الإسلام لمالك شبل

ليس هناك غرائبية أكثر من الحب الغرائبي. وإذا كان الشرق غرائبيا فإن عالم الحب في الشرق هو نواة الغرائبية. إن أراد المرء أن يصدق ما ذهب إليه مختلف العباقرة من أمثال غوستاف فلوبير وبول بولز، سيكتشف عندها كيف طردت الجنسانية من الغرب. أجل! لم يعد أحد يصدقهم. من دون شك بإمكاننا تأييدهم في نقطة واحدة؛ وهي أنه لا يمكن معرفة ثقافة ما بشكل عميق إلا عن طريق التمعن في حياتها الخاصة. لهذا فإن العلم والتلصص أحيانا يتقاطعان دون تمييز، لكن ما يبقى في النهاية ليس الأسباب وإنما النتيجة. بالنتيجة أيضا يجب قياس موسوعة «عالم الحب في الإسلام»، للباحث الأنتروبولوجي الفرنسي مالك شبل، سواء تعلق الأمر بالكم الهائل من المثاليات التي استثمرها الكاتب في هذا الكتاب والتي تطلبت منه جهدا كبيرا في إنجازه أو بالموضوع بحد ذاته.

فخلافا للغرب المسيحي ولصورة الإسلام الرائجة فيه حاليا، يبين الدين الذي جاء به محمد تاريخيا وبشكل نسبي العلاقة العفيفة تجاه الحب والجسدية. فاللذة تشكل هدية حقيقية من الله، والجنسانية هي تحديدا جزء لا يتجزأ من صورة الإنسان المسلم.

فحتى الممارسات الجنسية، المحرمة حسب القوانين الدينية، كانت لها دائما في العصر الذهبي للإسلام حضورا في الأدب وفي الحياة العامة.

لهذا فإن أي «تأريخ للجنسانية» سيكون ربما كذلك بالنسبة للعالم الإسلامي بمثابة مغامرة كثيرة الوعود والمتطلبات. إن أي مادة تأخذ شكل موسوعة ستكون ضعيفة وغير مقنعة، إذا كانت غير منسجمة وتفتقر للرؤية التاريخية؛ ستكون أقرب إلى المغامرة، كما هو الحال هنا إذا ما انحصر إنجازها على كاتب واحد.

لا عجب إذن! كون هذا المؤلف من طينة الموسوعات التي تعتمد مبدأ الجذاذات. فعادة ما تناول شبل لكل مفهوم ثلاث جذاذات. الأولى عبارة عن تعريف عام مدقق لهذا المفهوم، هدفه إعطاء توضيح أولي للقارئ الذي يعرف مسبقا ما هي الذروة الجنسية. وإذا ما تناولنا اعتباطا هذا المصطلح، الذي بإمكانه أن يستغني بكل اطمئنان عن الشطر الأول من هذه المقالة ومن معظم المقالات الأخرى، فسنجد أن حوالي ثلث الكتاب يتضمن مبادئ عامة ومنقولة، لا ندري من أين، عن توضيحات جنسية.

والجذاذة الثانية، التي غالبا ما جاءت مختصرة، تشير إلى أنه قد سبق للمرء في العالم الإسلامي أن سمع بهذا الموضوع: "لدى الأطباء العرب كانت ومنذ زمن طويل، ظاهرة الذروة الجنسية معروفة". من يظن ذلك؟

إن هذا الأسلوب من الأفكار النيرة يوصل وبدون لف أو دوران إلى الجذاذة الثالثة. "إن الوصف العلمي التالي (...) للقرن العاشر، يوضح ذلك". وبهذه الاستشهادات التفصيلية حول آليات الذروة الجنسية لدى الحيوان، ينتهي شبل وعلى هذا النحو تسير تقريبا جميع المقالات.

لا يمكن الاعتراض على كون هذا النوع من المؤلفات في مجمله هو كتاب شامل، غير أن الذي يروم هذه المقاربة عليه أن يكون على الأقل مطلعا على المراجع المختصة وواعيا بالإشكالات المحيطة بهذا الموضوع.

على العكس من ذلك فإن غياب الصرامة العلمية لدى شبل جعلته هو نفسه في علاقته بهذا الموضوع يغفل الأعمال السابقة، التي كانت بإمكانها أن تساعده عوضا عن نظرته التي سيطر عليها الأسى والأسف على كون هذه لم تخرج عن النظرة الذكورية للإيروتيكا الإسلامية.

إن مفهوم «فولفا» عربيا «الفرج»، الذي يعني في الوقت الحاضر الجهاز العضوي للأنثى عند العرب، لم يكن الأمر دائما كذلك. فأعمال فتحي بن سلامة التي ظهرت في فرنسا وضحت أن الكلمة في الأصل كانت تطلق على عضوي الرجل والمرأة معا. وإن تبني معنى دون الآخر يظهر بالتحديد عدم الدقة.

لم يأخذ شبل هذه التوضيحات المهمة بعين الاعتبار والتي هي خاصية أساسية في تطور العلاقة الجنسية في الإسلام، وبدلا من ذلك استشهد كما هو الحال كثيرا في هذه الموسوعة بما هو موجود في حكايات ألف ليلة وليلة.

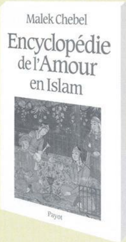
إن التوضيحات التنويرية التي جاء بها شبل في مقالة «الاستشراق» والتي ادعى فيها أن مؤلفات رسامي وكتاب القرن التاسع عشر اهتمت بحالتهم النفسية أكثر من موضوعاتهم. هذا أكيد. غير أنه من المثير للاستغراب أن يتناول شبل في مقاربته للحب في الإسلام عددا كبيرا من استشهادات كتاب الرحلات الشرقية المعروفين وتبناها كما هي دون تدقيق أو تمحيص.

لا غرو في أن هذه الموسوعة موجهة في الأساس إلى جمهور واسع؛ غير أن العامة من حقها أيضا أن تنتظر ما هو أكثر من مختارات تم تجميعها من كتابات مشرقية تتضمن شروحا مطلقة ومتداولة حول مصطلحات جنسية.

وفي أحسن الأحوال لا يخرج هذا المؤلف عن الدراسات الاستشراقية، حيث يطلع المرء على سيكولوجية سوق الكتاب وعلى تقديرات شخصية للكاتب أكثر من تيمة الكتاب: الحب في الإسلام.

ترجمة: محمد مسعاد

Malek Chebel
"Die Welt der Liebe im Islam"
Eine Enzyklopädie
Verlag Antje Kunstmann, München



كاميلا كليباكي

Kamila Klepacki

عرب أمريكا

العلاقات الأدبية العربية ـ الأمريكية

كتب أوتمار إيته Ottmar Ette، أستاذ الآداب الرومانية في جامعة بوتسدام، أن القرن العشرين لم يكن فقط قرن العولمة والحروب والحروب الأهلية، بل وكان أيضا قرن الفرار والهرب والهجرة. لم تعد ظاهرة الهجرة الجماعية استثناء، ومعها بذلك ظاهرة "الآداب التي لا موطن ثابت لها" المكتوبة من المهاجرين أو المتأثرة بهم، ولهذا يكون الوقت قد حان كي تمد الدراسات الأدبية في أفقها ولا تكتفي بعد بدراسة الأدب على الحدود التقليدية للبلدان واللغات.

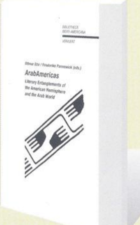
وهذا الاقتراح يشكل منطلق ومستهل كتاب "عرب أمريكا: تشابك الأدب في العالمين الأمريكي والعربي"، الذي جمع مساهماته كل من (أوتمار إيته وفريدريكه بانيفيك). وقد استوحيت مضامين الكتاب من محاضرات ألقيت في ورشتي عمل عقدتا عامي ٢٠٠٤ و ٢٠٠٥ في معهد العلوم في برلين. وكما يظهر من العنوان، يلتفت هذا الكتاب إلى جميع الصياغات الممكنة للروابط الأدبية بين العالم العربي والأمريكتين، اللاتينية والشمالية.

ففي هذا الكتاب تجد قصيدة كتبها مهاجر، يشكو فيها من الحنين إلى الوطن والاقتلاع من الجذور، ذات الدور الذي تجده روايات كتبها أمريكان متحدرون من أصول عربية، لا يعرفون وطن أجدادهم إلا من الأحاديث والحكايات أو من الكتب ولم يبق لهم منه أكثر من إحساس غامض بالانتماء.

إلا أن الكتاب يضم بين دفتيه أيضا الآثار التي تركتها حضارة المهاجرين العرب على الآداب المحلية، سواء كانت في الشخصية النموذجية للتاجر اللبناني في الرواية أو في شكل القصيدة كأسلوب للسرد.

والفضل في انفتاح بنية الكتاب على جميع الجهات، سيان شكلا أو مضمونا، يعود إلى لا محدودية تعيينات (أوتمار إيته)، كما يعود على الخليط المزركش من المشاركين في ورش العمل والعلماء والأدباء من مختلف الأصقاع.

فمن ناحية تحلل ناتالي هاندال، الكاتبة الأمريكية من أصول فلسطينية، صاحبة مؤلفات من بينها انطولوجيا الشاعرات العربيات، دور المطبخ العربي في عالم أفكار الكاتبات الأمريكيات من أصول عربية. ومن ناحية أخرى يأتي الكاتب والمؤلف اللبناني الياس خوري على تأثير الأدب المهجري السوري واللبناني في المشهد الثقافي في العالم العربي. بينما يحاول الروائي الكولومبي لويس فياض البرهان على أن أصوله العربية لا تؤثر على اختياره لمواضيع رواياته، إلا أنه يضطر في النهاية ليكتشف أنه يشعر بانجذاب قوي إلى وطن أجداده اللبنانيين. والمكسيكية فيرونيكا مورغويا، التي تستلهم في إبداعها الأدبي من المادة العربية، تصف أن اهتمامها بالأدب العربي يعود بالدرجة الأولى إلى مسألة الذوق.



مفهوم «عرب أمريكا» يتضمن منهلا مطبوعا بمختلف البلدان من الكويت إلى لبنان، من الولايات المتحدة إلى كولومبيا ولغته ليست العربية وحدها، بل وأيضا الانكليزية، الإسبانية أو البرتغالية. ولا يتحدر ممثلوه كلهم من العالم العربي ولهذا يستفيدون عمليا من جميع صيغ التعبير الأدبي الممكنة. كتاب «عرب أمريكا» لا يعطي لمحة منهجية بأي حال عن هذا الحقل الواسع من المواضيع.

والحقيقة، تبدو المساهمات وكأنها اختيرت اعتباطيا وتتوه أحيانا في تفاصيل لا تمت بصلة بالموضوع الرئيسي إلا بالكاد. إنه باقة من الأفكار والآراء الخلاقة ويرينا قدرات هذا الحقل العلمي.

أخيرا وليس آخرا، يشير الكتاب دون انقطاع إلى الروابط بين الأدب المطبوع بطابع عربي أمريكي وبين باقي العالم، خاصة بعناوين فرعية باسم الإسقاطات: فذكر الكاتب الأرجنتيني خورخي لويس بورخيس (أحد مشاهير المعجبين بحكايات ألف ليلة وليلة) يأتي في أكثر من مكان. وقصة أحداث موت معلن، الكتاب المشهور للكاتب الكولومبي وحامل جائزة نوبل للآداب غابرييل غارثيا ماركيز، تتم دراستها باستفاضة من ناحية

نموذج العربي لشخصياتها. وكثيرا ما تتكرر الاقتباسات من كتاب صراع الحضارات لصامويل هنتغتون ومفهوم الاستشراق لدى ادوارد سعيد. وباحث الدماغ الألماني (فولف زينغر)، يجد على الأقل اقتباسا كثير التداول مفاده: الإبداع في الأدب هو القدرة على "رؤية ما لم يُرى حتى الآن مترابطا".

ترجمة: كاميران حوج

Ottmar Ette / Friederike Pannewick (Hg.): ArabAmericas Literary Entanglements of the American Hemisphere and the Arab World Vervuert Verlag /Iberoamericana: Frankfurt am Main/ Madrid 2006

شتيفان فايدنر

Stefan Weidner

مفهوم الصور في الإسلام

عن كتاب سيلفيا نايف

فحوى السؤال الجوهري، الذي يطرحه الإسلام في الوقت الحاضر هو: ما موقفك من التصوير؟ وطبعا فإن الجواب على هذا السؤال، كما هو الجواب على كل سؤال جوهري، أصعب بكثير مما يعتقد. وإذا استطلعنا جميع ثنايا الموضوع، ستئز الأفكار في رؤوسنا أزا. من ناحية نرى غوغاء هائجة على الصور، يحرضها ديماغوغيون ظلاميون، تتدافع أمام الكاميرات لتلتقط صورها، ومن ناحية أخرى نجد أن محتويات اللوفر ستعرض قريبا في أبو ظبي. من ناحية تهدم تماثيل بوذا في باميان ومن الناحية الأخرى لم ينبس أحد طوال ألف عام ببنت شفة حولها في هذه البؤرة الإسلامية. من ناحية نسمع القناعة الراسخة لكثير من المسلمين بأنه لا يجوز تصوير محمد وأن المسلمين لم يصوروه قط، ومن الناحية الأخرى نرى البرهان المعاكس في عروض المنمنمات الإسلامية الخلابة، التي ظهرت في السنوات الأخيرة على غرار معرض اصطياد الفردوس - فن البلاط في عهد الصفويين في إيران في متحف آسيا في نيويورك أو تراث جنكيزخان في متحف الميتروبوليتان.

قد نتفهم المتدين عندما يمتعض من رسوم تهين دينه، بل وعندما يتظاهر ضدها ساخطا غاضبا، لكن الموقف يصبح إشكاليا فعلا، إذا علمنا أن لاشفافية المنظومة الإسلامية تمنع جدالا عقلانيا عن الصور وتؤدي بالتالي إلى أن يدعي كل من شاء، ما شاء. لن نزعم أن كتاب المستشرقة السويسرية سيلفيا نايف الجديد، الذي يتمتع بقدر كاف من الأهمية في هذا الوقت تحديدا، قد يغير شيئا من هذا الواقع، بيد أنه لا محيد عنه لكل من يعالج هذه الإشكالية بأسلوب جاد وعلمي، سواء كان مسلما أم لا.

لا تحتفي بنا نايف، والحمد لله، بأن تقدم لنا نظرية عظمى، بل تأخذ بيدنا مباشرة إلى الينابيع، إلى المصادر الإسلامية. أول أهم النتائج التي نستخلصها هو إبطال الرأي الذي أوحى به الاستشراق القديم والذي صار يؤمن به الجميع (حتى المسلمون)، هذا الرأي القائل بوجود «نفور لدى الساميين» من الصورة. طبعا لا يوجد مثل هذا النفور، خاصة في هذه الصياغة، حمالة الأوجه العرقية. الأمر الذي يميز الإسلام عن المسيحية، عطفا على فن الأيقونات، هو رفض استخدام الصور كأصنام. من يتهم الإسلام بالعداء للصورة، ينطلق إذا من طريقة تعامل دينه مع الصورة دون أن يتساءل عن الخلفيات وكأنها الطريقة البديهية لتعامل الآخرين أيضا معها.

بهذا تثبت لنا نايف أن أزمة الكاريكاتورات التي أطلقتها الجريدة الدانماركية يولاندبوستن من عقالها - على غرار الأزمة الآنية حول الكاريكاتورات السويدية - لا تمت بصلة إلى عداء المسلمين المفترض للصور، إنما يمكن تفسيرها بما تحتويه الكاريكاتورات من إهانة فاضحة. يقينا تم، ويتم، تصوير النبي والشخصيات الإسلامية المقدسة في أمكنة وأزمنة كثيرة. فلا بد لكل من سافر في إيران أن لاحظ الصور التي يعرضها الباعة الجوالون لعلي والحسين، اللذين يكن لهما شيعة إيران تقديرا خاصا، على غرار صور المسيح. تظهر كثير من المنمنمات الكلاسيكية صورا للرسول ليلة الإسراء والمعراج راكبا البراق، حصانه الطائر، غالبا - لكن ليس دائما - دون وجه أو مستورا بحجاب. بل وقد يدعو شيخ من شيوخ الأزهر المحافظين إلى تصوير النبي، بل وحتى تجسيمه، إذا دعته الحاجة، ما حدث فعلا عندما تنبه المسلمون الأمريكان عام ١٩٩٧ إلى حضور محمد أيضا بين المشرعين الثمانية عشرة، الذين يزينون إفريز المحكمة العليا في واشنطن منذ ١٩٣٥ وإن كانت رابطة العلاقات الإسلامية - الأمريكية قد استنكرت هذا، فقد أفتى الشيخ الأزهري جابر العلواني بالحفاظ عليه، محتجا بأن تشخيص

محمد في هذه الحالة شرف للإسلام. وبهذا ظلت الصورة التمثال في مكانها.

إذا دققنا النظر في المصادر الإسلامية، كما تفعل نايف، نندهش بأن الصور، بصرف النظر عن تحريمها، لا تندرج ضمن الأبواب التي عالجتها المصادر. لا القرآن ولا الأحاديث النبوية تتطرق إلى الموضوع إلا على الهامش. «أصنام» الجاهلية مثلا مستكرهة، ويقال إن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب أو تصاوير. ويروي أحد الأحاديث أن عائشة، أحب نساء النبي إلى قلبه، علقت ستارة عليها صورة كائنات حية في بيتها، فأمرها النبي أن تزيلها فصنعت منها وجوها لوسادتين، اتكأ النبي على إحداهما ولم يستكره الأمر رغم وجود صورة عليها. فسر العلماء هذا الحديث بإمكانية إحداث تصاوير على كل ما يُجلس عليه وما يُوطأ بالأقدام.

أما فيما يتعلق بالرسم، فإن تصوير الكائنات الحية محرم حسب المشرعين القدماء لما فيه من تطاول على الذات الإلهية. ويتعطل أثر هذا التصوير إن مسح الرأس على سبيل المثال أو حطم. ولهذا نجد تماثيل القديسين المسيحيين في الكنائس في قبادوقيا مشوهة الوجوه. رغم هذا تذكر المصادر الإسلامية القديمة مسألة الصور على الهامش، ولا تخصص لها أبوابا ولا فصولا. وبتوسع انتشار الورق مع الألفية الثانية شاع في شرقي العالم الإسلامي خاصة فن النقش على الكتب، الذي وصل ذروته بين القرنين الثالث والسابع عشر. فالملاحم الفارسية على غرار «الشاهنامه» كانت على وجه الخصوص ملهما للمنمنمات. والحق يقال، فإن استعراض نايف السريع لا يفي عظمة هذا الفن حقه، خاصة للقارئ الغربي. علينا أن نرى رؤيا العين ما أقدم عليه الرسامون المسلمون والأفضل أن نطلع بالإضافة إلى هذا الكتاب على كاتالوج للمعروضات المذكورة أعلاه. لا تفسر نايف إعجاز هذا الفن، الذي ألهم حامل جائزة نوبل للسلام أورهان باموك مقاطع المنمنمات النبيلة في روايته «اسمي أحمر». كما أن القارئ يفتقد تفسيرا لعدم تمكن ظاهرة المنمنمات، التي شاعت في إيران بوجه خاص، من التغلغل في الذاكرة الحضارية للمسلمين إلا بالكاد. ربما أمكن تفسير الأمر بأن فن نقش الكتب، بخلاف الصور المعروضة أمام أنظار جمهور أكبر في الكنائس الغربية، لم تطلع عليه سوى حلقات النخبة الضيقة في البلاط.

وجدت ندرة الصور في العالم الإسلامي هذه نهايتها في أقصى حد مع التصوير الضوئي، فهذا الفن هو من نجح في انتشار الصورة الشخصية، وبالمناسبة الرسم أيضا، في هذا العالم. لم تستطع الإرشادات الدينية في القرن العشرين الوقوف بوجه إعصار الصورة والفيلم. ومع ذلك يظل تشخيص محمد سواء في صورة أو فيلم من المحرمات. يبدو أن



هذا التابو أصغر وبهذا أيضا آخر قاسم مشترك بين علماء مختلف مذاهب الإسلام وطوائفه المتشظية. فهنا، وربما هنا فقط، يمكن الاستشهاد بالاتحاد والاتفاق الافتراضيين بين المسلمين. لهذا فمن المفهوم ألا يفوت حماة حمى هذا الإسلام الواحد المتخيل هكذا فرصة. أما ما لا يمكن فهمه، فهو لماذا يصر بعض المتحرشين في الصحافة الغربية على تقديمها لهم.

ربما حق لنا إيجاز كتاب نايف الصغير حجما، الجليل شأنا، على خلفية المجريات الآنية، كما يلي: تستغل أزمة الكاريكاتورات في ظروف امتهان المصادر التاريخية واللياقة الأدبية من الجانبين، لإيقاد نار صراع يجري على حق التفسير، على قوة الخطاب السياسي وبالنتيجة على استقطاب جماهير واسعة لتحقيق مآرب، لا شأن لها لا من بعيد أو من قريب مع المسألة الرئيسية.

ترجمة: كاميران حوج.

العنوان الرئيسي للكتاب:

Silvia Naef

Bilder und Bilderverbot im Islam

Vom Koran bis zum Karikaturenstreit

C. H. Beck Verlag, München 2007

أحمد حسو   Ahmad Hissou

أنقذونا من مسلسلات رمضان

التلفزيون وسيلة لنشر الفكر الرجعي

ربما يكون من الغرابة بمكان استعادة عبارة محمود درويش هذه عند الحديث عن المسلسلات العربية التي باتت طقسا من طقوس شهر رمضان. بالطبع لا يفهم من هذا الكلام أن المسلسلات التلفزيونية تبث على الشاشات العربية في شهر الصوم فقط، إلا أنها تحظى بأكبر نسبة مشاهدة في هذا الشهر. ليس هذا فحسب، بل وصل الأمر إلى حد أن المنتجين حولوا أعمالهم الدرامية إلى نوع من «سرير بروكوست» تلفزيوني بحيث أنهم يعدون حلقات تكفي للشهر كله وأيام عيد الفطر المبارك أيضا مهما كان الاختلاف بين الدول العربية في تحديد هلال شوال. وقصة التلفزيون مع رمضان لا تقتصر على الأعمال الدرامية وحدها، بل تتعداها إلى البرامج الدينية أيضا. والأمر لا يتصل ببعض القنوات الدينية الخاصة، لأن هذه طبيعتها، بل يتعداها إلى القنوات الرسمية، وخصوصا محطات التلفزة الخليجية الرسمية، والفضائيات الكبرى كا لـ MBC والمحطة اللبنانية للإسال الـ LBC الحياة وغيرها.

قصة نجاح

القصة بدأت مع بروز ما بات يعرف بظاهرة انتشار الدراما السورية التي لقيت نجاحا كبيرا في العقود الماضية وكسرت احتكار المسلسلات المصرية للشاشات العربية. والظاهرة لحد الآن تبدو صحية وعادية والمشاهد يخرج منها الكاسب الوحيد إذا اقتصر الأمر على المنافسة الشريفة. فاجتهاد الفنانين السوريين والمصريين في كسب ود المتلقي سيدفع بهم لتقديم أفضل ما لديهم. وربما تكون الإضافات التي قدمتها الدراما السورية ذات أبعاد مختلفة، فنية وسياسية واجتماعية وثقافية في نهاية المطاف. إذ لم تعد المسلسلات تتناول موضوعات مطروقة ملها المشاهد لتكرارها، بل أخذت الأعمال التلفزيونية الدرامية تتحول إلى نوع من عمل سوسيولجي وسياسي جاد كأعمال الروائي السوري نهاد سيريس التي قدمت صورة رائعة عن التاريخ والبيئة الحلبية ومسلسل التغريبة الفلسطينية للمخرج المجتهد حاتم علي الذي تناول بطريقة ملحمية قصة النزوح الفلسطيني. الأمر نفسه ينطبق على المسلسل المصري «ليالي الحلمية» للكاتب المعروف أسامة أنور عكاشة. ويمكن أيضا التنويه بالأعمال التي رصدت حقبا سياسية قريبة كمسلسل «أبو كامل» الذي تناول فترة حكم فيشي لسوريا بطريقة جديدة قلبت مفهوم البطل الإيجابي رأسا على عقب. لكن مع تحول الظاهرة، ظاهرة إنتاج المسلسلات في سوريا إلى نوع من الصناعة الناجحة وبروز شهر رمضان كفترة الذروة في بثها، ظهرت أعراض خطيرة ترافق هذه الدراما وتلعب دورا سلبيا في تكوين ذائقة جديدة لدى المشاهد أقل ما يقال عنها أنها محافظة.

الفانتازيا التاريخية كتلفيق للماضي

ومع ظهور المسلسلات التي عرفت بالفانتازيا التاريخية، وكانت حصيلة جهد مشترك بين الممثل وكاتب السيناريو الفلسطيني هاني السعدي والمخرج السوري نجدت أنزور، حصل انحراف خطير في بنية هذا الشكل الفني. فمسلسلات «الجوارح» و «الكواسر» وغيرها توجت تقليد الفرجة في رمضان وأدخلت المشاهد العربي في ماض وهمي يقوم على فكرة تفوق العنصر العربي واحتقار الشعوب الأخرى من خلال توليفة درامية «فانتازية» شيقة. والخطورة تجلت في الأساس في الإبهار الذي توسله أنزور لإيصال هذه القصص الملفقة و «العنصرية» إلى المشاهد بسهولة. وهي المرة الأولى التي تستخدم فيها هذه التقنيات في الأعمال التلفزيونية التي كانت عادة تعتمد على مشاهد تتسم بالإطالة والملل. هذا النجاح جعل من التلفزيون مصدرا أساسيا للمعرفة والتسلية لدى المتلقي العربي الذي يسعد بالحصول على المعلومة ضمن

تشويق بصري ودون عناء. وإذا كانت بعض المسلسلات الناجحة كتلك التي كتبها الروائي السوري خالد خليفة قد بشرت بقيم عصرية وإنسانية نبيلة، فإن أعمالا أخرى كالمسلسل المصري «عائلة الحاج متولي» أعادت عقارب الساعة إلى الوراء عقودا طويلة. فبعد أن تمكن المجتمع العربي، حتى الريفي منه، من لفظ ظاهرة تعدد الزوجات والنظر إليها بصورة سلبية جدا، يأتي التلفزيون ليقدم صورة وردية عن هذه الظاهرة المتخلفة من خلال مسلسل "جماهيري ناجح".

التلفزيون وسيلة معرفية سطحية وخطيرة

والسؤال الذي يحتار المرء في الإجابة عنه هو لماذا اللجوء إلى التبشير بهذه القيم السلبية والبائدة؟ فإذا كان معظم الفقهاء يرى في آية تعدد الزوجات، سواء في "سياق نزولها" أو في "سياق تركيبها اللغوي"، أي صيغة الشرط التي تربط بين الإباحة وبين الخوف من عدم العدل مع اليتامى، تأكيدا على أن الأمر لا يتعلق بتشريع دائم، بل مؤقت ولمعالجة موقف طارئ، (انظر: نصر حامد أبو زيد: دوائر الخوف، قراءة في خطاب المرأة صفحة ٢١٧)، فلماذا يأتي عمل فني عصري ليؤبد هذا "الموقف الطارئ" ويعيد إنتاجه بعد مئات السنين وكأنه ينتمي إلى حاضرنا؟

هذه الهواجس تنطبق أيضا على مسلسل «باب الحارة» للمخرج السوري بسام الملا الذي يتناول البيئة الشامية (الدمشقية) القديمة، وتحظى أعماله باهتمام وقبول كبيرين لدى المشاهدين العرب. فالجزء الثاني من هذا المسلسل (باب الحارة) حقق نجاحا خياليا وحصد أرقاما قياسية في نسبة المشاهدة وتفوق على كل الأعمال التلفزيونية التي عرضت في رمضان هذا العام. و «باب الحارة» ينتمي إلى هذا النوع من الدراما التي تبشر بقيم ملفقة وملفوظة أو في أفضل الأحوال محافظة؛ لكنها حين تقدم في حبكة شيقة وعلى يد مخرج ناجح كبسام الملا تبدو وكأنها مشتهاة وواجبة الاستعادة. هذا إذا كانت قد سادت في يوم ما أصلا. فباب الحارة لا يقدم من تلك الحقبة، التي شهدت نهوضا كبيرا تجلى بإنهاء السيطرة العثمانية وتأسيس المملكة السورية وبروز نخبة من المفكرين العظام، سوى حارة مغلقة يسيطر عليها أحد قبضايات المدينة يلقب بـ «العكيد». وبالرغم من أن لهذا العكيد أياد بيضاء على المجاهدين سواء في الغوطة أو فلسطين، الذين قاتلوا ضد الاحتلالين الفرنسي والإنجليزي، إلا أن مايره المشاهد ليس سوى مجتمع منغلق على نفسه يرفض الآخر ويقدس الحارة التي تشكل الوطن النهائي له. فصراعات مجتمع مسلسل «باب الحارة» ليست ضد المحتل الأجنبي، أو ضد الفقر والتخلف، بل ضد الحارات الأخرى ولأتفه الأسباب وغير المقنعة إطلاقا. والأمر الأخطر هو النظرة الدونية للمرأة الدمشقية في تلك الحقبة. والمسلسل يقدس الحجاب ويضعه في أرفع مقام؛ فحين يدخل الأخ إلى البيت ويرى بالصدفة زوجة أخيه بدون غطاء للرأس تقوم الدنيا ولا تقعد. هل كان وضع المرأة الدمشقية بهذه الصورة في تلك الحقبة الناهضة؟ نحن نعلم أن قضية الحجاب مرت بمراحل عديدة لكن ظهور المرأة دون غطاء الرأس في البيت كان أمرا طبيعيا. ولا ندري لماذا تجعل الدراما السورية الحديثة من هذا الأمر قضية القضايا. ليس هذا فحسب، بل الخطورة تكمن في أن هذا العمل لا يلقي الضوء إطلاقا على القيم النيرة في المجتمع؛ إذ لا نرى على مدى أكثر من ستين ساعة تلفزيونية (الجزءان الأول والثاني) أية إشارة لمدرسة أو جامعة أو حتى كتّاب لتعليم القرآن مثلا. أليس من الغرابة بمكان ألا يكون في هذه «الحارة»، التي ترمز لمدينة دمشق، إلا باب وحمام ومقهى وصالون حلاقة؟ ألم يكن في هذه الحارة المتميزة أي موظف أو طالب أو مثقف؟! ما المقصود بكل هذا؟ ولماذا التفاف الناس حول أعمال تبشر بهذه القيم الرجعية في زمننا هذا. فحتى بطل «باب الحارة» (الممثل السوري عباس النوري) أبدى دهشته من هذا الحماس الكبير للمسلسل ولم يجد تبريرا لهذا النجاح المنقطع النظير. هل هو الحنين إلى الماضي؟ إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يقدم الماضي بصورة أخرى؟

والمشكلة لا تقتصر على المسلسلات فقط فالبرامج الدينية تسير في المنحى نفسه إذ لا يجد المرء أي تفسير لغياب رجال الدين المعتدلين على الشاشات العربية بشكل عام. فمن يتصدر إطلاق الفتاوى هم شيوخ السلفية المتزمتون. ففي موضوع آية تعدد الزوجات، التي سبقت الإشارة إليها، نرى أحد هؤلاء الشيوخ (قناة سما دبي) يناقش سيدة يمنية في تفسيره لهذه الآية ويقول إن الأصل في الزواج في الإسلام هو التعدد!! (لاحظوا) والاكتفاء بواحدة يكون فقط في حالة العجز. ماذا نقول؟ هل نعيد كلام محمود درويش ونقول: أنقذونا من المسلسلات الرمضانية والتلفزيونات العربية على السواء؟